القدّاس الأسود

عمر بن شريّط

القدّاس الأسود

رواية

ضمّة
DAMMAH
للنشر والتوزيع

القداس الأسود

عمر بن شريط
القداس الأسود
ردمك: 978-9931-770-05-3
الإيداع القانوني: أكتوبر 2019

ضمّة للنشر والتوزيع
حي 24 فيفري 1971 سيدي عيسى ولاية المسيلة
إيميل: dammah.nashr@gmail.com
dammah.nashr

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينة ضمن نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون اذن خطي مسبق من الناشر.

إهداء

إلى كلّ روائيّ على هذه الأرض،
وإلى ذات الرّواية فيّ.
إلى كُلّ من أحبّ؛
أنا الذي يحبّ الجميع!

مقدّمة

-من داخل الرّواية-

آسفٌ لكلّ من سيتأثّر بما سيُكتب، ولكلّ ضعيف في تديّنه، أو في نفسه، آسف لكُل من سيغدو عابدًا لإبليس اللّعين، ومن سيُصبح مُخلصًا له.

كلّ الأسف منّي لمن سيدخل في دهاليز نفسيّة وعقائديّة أو تجرّه الرّواية بغير قصد لأن يُصبح من دون أن يشعر واحدًا منهم؛ أهل الشّيطان وخاصّته!

الفصلُ الأوّل:
أصحاب أقنعة الماعز البيضاء.

"...أفتحُ عيني اليُمنى راصًّا على اليُسرى التي لم تشأ أن تفتح وها أنا أحاولُ التّركيز بعين واحدة. لمحتُ في رأسِ هذا المرّر، أو الشّارع الضيّق خيال شخص يقفُ هناكَ، لا يظهر كاملًا فجزء من جسده مُختفٍ في زاوية المنعطف، مرّرتُ عيني الوحيدة عليه لأتفحّص ملامحه.. اللّعنة! ما هذا؟ إنّهُ واحدٌ منهم؛ أصحاب أقنعة الماعز البيضاء!"

جماعة تحمل الكثير من الرّيبة والغموض، مُلثّمة وجوههم بأقنعة ماعزٍ بيضاء اللّون ببعض اللّطخات من الدّماء عليها لا يظهرُ من ملامحهم شيء فحتّى الأعين محجوبة بقطعِ بلاستيك أسود لا أدري كيف يروننني من خلاله؛ لكنّهم يفعلون.

عرجتُ معهم داخل السّيّارة، جلستُ بين اثنين منهم واستدار إليّ السّائق ومن معه في الأمام، يا لهُ من جوّ غامض ومهيب!

أحملق في وجوههم وأرتعبُ من نظراتهم البلاستيكيّة الباردة وكأنّي نسيت أنّ وراء هذه الأقنعة إنسٌ مثلي، حقًّا فعلت. بدأ من على يميني بإيماء رأسهِ كالمُختلّ يُحرّكهُ بعشوائيّة

غريبة يتفحّصُني وهو يتلمّس خدّي بسكّين يفرك بها سطح بشرتي يحاولُ زرع الكثير من الذّعر فيَ أكثر ممّا أنا عليه الآن.

وأنا أحاولُ الدّخول بين جنباتي كسلحفاة مُسنّة لأتفادى طعنة غدرٍ مُفاجأة منه. اكتفيتُ بالصّمت ومُتابعة ما يحدث علّني لا أزعجهم ليتمّ قتلي الآن في هذه اللّيلة الماطرة، في هذه الضّاحية المهجورة. فحتّى الشّارعُ ضيّقٌ، وفي الخارج ثلاثُ درّجات ناريّة تسدّ مدخليه.

وكأنّي أسمعُ شخصيّة الرّاهبة من روايتي تقولُ باستهزا: "من سيتبوّل على نفسهِ الآن؟" اللّعينة، معها حق. تُرى ماذا يودّون منّي! ألعنُ اليوم الّذي فكّرتُ فيه بالقدوم إلى هُنَا، فمنذُ أن وطئت قدمايَ هذا المكان والمشاكلُ تصاحبُني.

أعليّ السّؤال أم الانتظار؟ كلاهما مُخيفٌ ولكنّ هذه الثّواني اللّعينة تزيد من توتّري كثيرًا. اللّعنة. أنا أنطقُ هذا اللّفظ كثيرًا بداخلي، اللّعنة. أيّ لعنة حلّت عليّ يا ربّي؟ أظنّهم يؤمنون بالرّب! إنّ قلادة السّائق عليها عقدٌ على شكل صليـ...! منذُ متى والصّليب يُرتدى بهذا الشّكل؟ مقلوب على رأسهِ ومُطرّز بشكل مُخيف.

أيرمزُ هذا لأمرٍ ما أم أنّهُ مُجرّد ديكورٍ غريب للزّينة بالصّليب. هدوء، صوت حبّات المطر تدقّ السّقف بتواتر بطيئ وبعض نفحات الرّياح تلذعُ بصفيرها أذنايَ لتزيدَ الجوّ

رُعبًا.. رعودٌ قاسية تهزّ المكان وتهزّ داخلي فتملأني ذعرًا عندما يلمعُ بريقُها السّاطع في هذه الوجوهِ المُخيفة ولا يلبثُ إلّا أن يعود الظّلام بعدها.

مدّ السّائق يدهُ نحو حاويةٍ في مُقدّمة السيّارة وأخذ منها ظرفًا ورقيًّا، رسالةٌ أم ماذا؟ رماها بين يدايَ وأشار من يجلسُ بمُحاذاتي بالسّكين إليها لأحملها وهو يتمايل برأسهِ بهدوء وغرابة شديدة.

فجأة يفتح الباب وينزلُ جاذبًا إيّايَ للأسفل فسقطتُ أثناء نزولي بهذهِ الوحشيّة وارتطمتُ بعمود الإنارة، تذبذبت الرّؤية في عينايَ وأنا أراهُ صاعدًا أغمضُ عينيّ بشدّة لأستعيد الرؤية ثُمّ أفتحها عدّة مرّات مُتتالية سريعة لأستعيد الرّؤية بوضوح.. أراهُ خلف زجاج نافذة السيّارة، يحملقُ فيّ برأسٍ معقوف قليلًا ثُمّ يومئُ بيدهِ في الجوّ مُحرّكًا إيّاها يمينًا وشمالًا يُودّعني.

تزحزحتُ إلى الخلف بسرعة وقسوة لأصطدم بالجدار خلفي؛ لا أدري إن كنت مكراهًا على الانصياع لأهوائهم أو كنت مخيّراً بين الانقياد لهم والاعراض عنهم؟ وهل كان هؤلاء سيسمحون لي بالتّمرّد عليهم وعصيانهم، أم كان ذاك السّكين سيُحزّ في عنقي إن أبيتُ الصّعود عندما حاصروني؟! لا طائلَ من السّؤال الآن.

حملتُ أطرافي كقطّ مُرتاع لأفرَّ بعيدًا، كقطّ مُشرّد رُبّما، جريتُ مذعُورًا وسقطتُ في مكاني، وفي أوّل الخطوات ارتطمت مرّة بحاوية القُمامة لتزيد عرقلتي ببعض المُخلّفات المرميّة في الأرض لأصطدم مرّة أخرى بالجدار في وسط هذا الشّارع الضيّق جدًا.

وهكذا أجري غير مُتّزن بين علُوّ هذين البنايتين العاليتين في هذا المعبر لأصل عند نهايته إلى الطّريق الرّئيسيّ بينما كان كُلّ من السّيارة والدّراجات الناريّة يبتعدون في المنفذ الآخر.. وصلتُ إلى الطّريق ودلفتُ لبعضِ الشّوارع الضّيّقة الأخرى وبعض الممرّات لأظلّهم عنّي إن كانوا سيقتفون أثري. ولكنّي لم ألحظ أحدًا، ولم أسمع إلّا وقع خُطواتي في هذه الأرض النديّة وفي بعضِ بركِ المياه الّتي تُطلقُ رشًّا في كُلّ وطأة قدم عليها، حيثُ عبرَ الكثيرُ من الماء داخل حذائي ولم أكترث لما أدوسُه، فكُلّ همّي كانَ بلوغ مكان آخر أكثر أمنًا.

وطبعًا صوتُ تعاقب أنفاسي الواضح في هدوء هذه الضواحيّ المُظلمة باستثناء بعض النّور الآتي من مصابيح الأعمدة الكهربائية الخافت، أو مصابيح بعض البيوت. أنهكتُ قوايَ بهذا العَدْوِ السّريع وبدأتُ أحسّ بالدّوار، جثوتُ على ركبتاي أسعلُ بشدّة مُحسًّا بأن حلقي قد جفّ وتشقّق وبأنّ رئتيّ قد تصدّعتا وكأنّهما تحترقان في كلّ شهيق وزفير.

ضاق عليَّ التنفّسُ وبدأت أشعر بالغثيان ثمّ شرعت في ابتلاع ما يصل إلى حلقي من قيء عدّة مرّات دونما رغبة منّي إلى أن لفظت سائلاً حامضًا من فاهي وهنا انفرجت شفتاي الميبضّتان واليابستان فظهرت عليها بعض التشقّقات وسالت منها قطرات من الدّم وكانت كفّايَ تستندان على الأرضِ وأنا مُطأطأ رأسي أحاولُ السّيطرة على نفسي وتمالك أنفاسي.

خارت قوايَ كُلّيًا.. تفحّصتُ المكان خلفي ولم يكن هُناك إلَّا كلبٌ ظالّ يحاولُ الصّعود أعلى حاوية القُمامة.

تفحّصتُ كُلّ النواحي وتبيّن أنّه لا أحد في هذا الشّارع غيري، أنا والكلب. شارعٌ جعلني ألعنُ مهندسهُ لتشابهِ الشّوارع الضيّقة والممرّات هذه بين البنايات.

وكأنّني في نفس المعبر الّذي عشتُ فيه أغرب ما قد يحصلُ لامرئٍ في هذا الكون. استندتُ على الجدار خلفي مخبّئًا ذلك الظّرف جيّدًا في أحد الجيوب الدّاخليّة حتّى يتوقّف المطر. مددت رجليّ إلى الأمام واضعًا يدايَ بتعب فوق فخذيَّ رافعًا رأسي للسّماء، أغمضتُ عينايَ مُنتشيًا بقطرات المطر. لوهلة لعنتُ كُلّ من يحتمي من هذه الحبّات الطّاهرة بمظلّة أو يجري مُسرعًا ليختبئَ منها.

اسقني بهذا الماء المُقدّس أكثر أيّها السّحاب. التطهّر بالمطر نعمة لا يعرفُها إلّا التُعساء. نسيتُ نفسي حتّى وجدتُ

شفتايَ قد فُوِّهتَا وتشكّل اتساعٌ بينهما تخرجُ منهُ أنفاسٌ عادت للبطُءِ الطّبيعيّ مُرتخية بملامحَ قد سرحت بعيدًا لتجدَ بعض السّكينة في هذا المطر والخيالات المرسومة خلف انغلاق الأهداب في ظلام لُوّن بزهاءِ الجنّة. أيقظني من هذا السّفر صوتُ أنين أشبه بالصّفير، وأقرب للعواء..

فتحتُ عينايَ لأجد ذلك الكلب يصدرُ صوتًا مُبطّنًا من داخلهِ يَلفتُ بالقُرب من حاوية قمامة أخرى، أقرب لي.. وكأنّهُ فشل مرّة أخرى في أن يجدَ شيء ما يسدّ جوعهُ.

بقيتُ أراهُ مُستأنسًا بهِ وبتحرّكاته. ومستأنسًا بوجود جائع مثلي في الأرجاء. اقترب منّي بمشية عرجاء، بعيدًا عن الدّراما السّاذجة، لم يأتي إليّ بل لَفَتَهُ القيئُ في الأرض فأخذ يشتمّه! خاطبتهُ قائلًا: "أنا لم آكل شيء منذُ يومين، لن تجد شيئًا فيه".. كان هزيلًا جدًّا وعليه بعضُ الكدمات الدّامية الدالّة على أكثر من شجار قد خاضهُ مُؤخّرًا. تحسّستُ مكان الاترطام بعمود الإنارة سابقًا، كان مُنتفخًا قليلًا، ومُؤلمًا طبعًا. وقلتُ للكلب: "نشتركُ في الكثير من الأشياء يا صديقي"، مددتُ يدي فوق فروة رأسهِ لأفركها فتنحّى به بعيدًا عن كفّي بخوفٍ ظانًّا بأنّني سأضربهُ ولكنّه توقّف وتركني ألمسهُ. جذبتهُ إليَّ وشاركتهُ معطفي ليحتمي من البرد داخلهُ. بعيدًا عن الدّراما مرّة أخرى..

كنتُ ألبسُ ثلاث معاطف خفيفة ورثّة علّها تُشكّل الدّفئ الّذي سيكون في معطف واحد جديد. أخذ واحدًا وبقيَ اثنانِ فوق كتفيَّ.. توقّفَ أنينهُ فجأة ثُمّ أصدر صوتَ عواء شديد يتكرّر صداهُ في أروقة هذه الشّوارع الضّيّقة. ارتعبت في الوهلة الأولى وتسارعت نبضاتُ قلبي من صوته الّذي أتاني على حين غفلة ثُمّ ضحكتُ وأنا أراه.

نظرتُ للسّماء، والمطر. دسّستُ بعض الهواء بسرعة في جوفي وأطلقتُ أكثر من عواء شاركتهُ به وفي كُلّ مرّة أزيدُ في قوّة الصّياح.

تشاركنا العواء والجوع والبرد. لتُشاركنا بعضُ الكلابِ الظّالة في الأحياء المجاورة نفس الأمر.. لا، ليست الكلابُ الظّالة فقط من شاركتنا الأمر.

فحتّى أحدُ الكلاب فوق هذه البناية العالية والفخمة أمامي أطلق العنان لنُباحهِ وصار يعوي معنا. تُرى من هُم الكلابُ حقًّا؟ أهم من تشاركوا الحرمان والبؤس وتآزروا فيما بينهم أم من فقدوا إنسانيّتهم وتجرّدوا منها فضنّوا على الجيّاع حتّى بفتات موائدهم بل ولم يمسحوا عنهم أساهم ولو بكلمة طيّبة؟

مشهدٌ مهيبٌ انسجمتُ فيه مع الطّبيعة والمطر وتطهّرتُ به ممّا فيّ. لم تكن الكلابُ فقط سيّدة الحفلة الّتي دخلتُ فيها معهم بتبادل العواء والأسى.. سمعتُ صوتَ

امرأة شابّة تشاركُنا نفس الأمر، آخرُ عواء بعدما سمعتُ صوتها كان كأنين الكلب أوّل مرّة، يعود من قوّة الصّراخ بتدرّج لصوت صفير ثُمّ انتهى بصوت بارد إنسانيّ بحت "أووو"، لم أجد صاحبة الصّوت في الجوار، لا في فتحتيّ الشّارع ولا في أحد النّوافذ..

كأنّ صوتها من العدم، وكأنّ صوتها من الجنّة جاء ليُواسينا. أتُراهُ كانَ حقيقةً أم مُجرّد هلوسةٍ منّي؟ نظرتُ بعشوائيّة هُنَا وهُناك بملامح بلهاءَ ولازالَ فاهي مُشكّلًا بشفتايَ تجويف العواء كالأحمق. سادَ الهدوء من جديد، عدا بعض الكلاب البعيدة الّتي لم تتوقّف..

خرج من أحد الشّبابيك في أعلى المبنى صوتُ صُراخ مُعاتب والكثير من الشّتم والتهديد. لم يكن صاحبُ الصّوت امرأة، لم يكن صوتهُ جميلًا أصلا. صوتُ نباح هذا الكلب بالقُرب منّي أفضلُ من زمجرتهِ الّتي كانت تارة توجّهُ اللّعنات إليّ لتطرُدني، وتارة لشِبّاك آخر، لا أدري لماذا ولكنّهُ كان يصرخُ مُوجّها كلمات دنيئة لهُ أيضًا.

دخلَ لوهلة ثُمّ خرجَ حاملًا دلوًا من المياه وسكبها علينا، كانت المسافة بيني وبينهُ كافية لأتفاداها في هذا الجوّ البارد، حيثُ تجنّبتُها مُبتعدًا قليلًا فتعثّرتُ وكدتُ أسقط. نبح الكلب بغضبٍ خلفي فخلتُ نفسي قد ضربتهُ بغير قصدٍ واستدرتُ مُحاولا معرفة ما به! لأجد بأنّ تلكَ المياه قد

سُكبت عليه. نظرتُ للأرض بسُرعةٍ فوقعتْ عيناىَ على قطعةٍ معدنيّة صغيرة وكأنّها نادت عليّ لأجدها دون مشقّة البحث. وقبل أن تصل يدي إليها تغيّرَ مسارها بعد أن لمحتُ شيء آخر بجانبها! حملتُ صخرة من الحجارة الّتي تُستعمل في أرصفة الطُّرقات، كانت بجوار كومة من أخواتها المنسيّات ولحُسن الحظّ أنّ رميتي قد وُفّقت للارتطام بزجاج نافذته.

ولحسن حظّهِ أنّها لم تضربهُ كما كنتُ أودّها أن تفعل. لم أكن أنانيًّا هذه المرّة. حملتُ الكلب بسُرعة وابتعدنا عن مرمى سقوط شظايا الزّجاج.. خرجَ ذلك الكهلُ المُتعجرف من فُتحت النّافذة يتوعّد بالنّزول ويأمرني بالانتظار.

تأمّلتُ غضبه المشتعل الغبيَّ هذا ولم أكن أحمقًا للدّخول في شجار لن أستفيد منهُ سواء أبرحتهُ ضربًا أم هو من فعل. ولم أكُن لأنتظر مُدّة نزوله الّتي غالبًا ما ستطولُ لطول المبنى حتّى وإن استعمل المصعد لا لشيء سوى لنضرب بعضنا بعضًا. مشيتُ بضعَ خطوات للخروج من هذا الممرّ نحو الطّريق الرّئيسي، أين ستُقابلني الكثير من الممرّات والشّوارع الضيّقة الأخرى وكأنّها نزل كبير أختارُ المبيت فيه أينما أشاء. نظرتُ للخلف لأجد أنّ الكلب قد اختارَ طريقًا عكس طريقي، أخذَ السّبيل الآخر للشّارع يمشي بخطواته العرجاء يُلطّخ أنفهُ بالأرض بحثًا عن اقتفاء أثر شيء ما ليُأكل.

معطفي؟ ابتسمتُ حينما رأيتهُ فوق ظهره يحميه من البرد؛ لا هو انزعج منهُ ورماه ولا المعطف سقط لوحده.. قلتُ بصوت يكاد لا يسمع: "اعتبرهُ هديّة يا صديقي"، وأكملتُ السّير.. لازلتُ أنا والكلب نشترك في الكثير من الأمور! كلانا مضى سبيله بحثًا عن الأكل والمأوى لهذه اللّيلة.. تُرى من كانت صاحبةُ ذلك الصّوت! أيُعقل أن تكونَ مُشرّدة مثلي؟ غريب. - لا يهُمّ - مشيتُ بضع شوارع وممرّات قريبة لأجد مكانًا هادئًا ونقيًّا افترشتُ فيه علبة كرتون كبيرة لثلّاجة وجدتُها بالقُرب من حاويات القُمامة، دلفتُ داخلها.. ورحتُ أتخيّل الثلّاجة، كم من الفواكه والمشروبات والأطباق فيها الآن! قلتُ ضاحكًا باستهزاء: "هم داخل الثّلّاجة، وأنا داخل عُلبة الثّلّاجة"، تأمّلتُ سقف الكرتون فوقي ألاحظُ تغيّر لونهِ الّذي صار داكنًا لتشبُّعِهِ بقطرات المطر الّتي بدأت ترسمُ خرائطًا ستبدأُ في التّقطير بعد مُدّة صغيرة.

استدرتُ لأنامَ على أحد جانبيَّ؛ شبّكتُ ذراعايَ واترصصتُ ببعضيَ مُغلقًا المعطفَ عليّ ضامّا ساعدايَ ويديَّ عند صدري. لم أستغرق إلّا ثوانٍ غفيتُ فيها حتّى قبّلتني قطرة ماء. فتحتُ عينايَ مُمرّرًا إيّاهُمَا لأقصى أبعاد النّظر لأرى السّقف، لكنّ مجال رؤيتي لم يصل إلى هناك، تحرّكت حدقتايَ في الأرجاء؛ في مكاني بدون أن أستدير أو أحرّك وجهي..

حاولتُ البحث عن عُمق آخر بين عنقي وكتفي لأحتميَ فيه، لكنّي لم أجده. قُبلة أخرى، وأخرى...

02:12 صباحًا.

ساعةٌ ونصف أسفل هذا الكرتون الذي فقد بُنيتهُ بعد أن ارتوى ماءً وصار كقطعة قُماشٍ مُبتلّة، ومُهترئة. حيثُ بالكاد بقيَ مُتماسِكًا من تشقّقاتهِ وانفلاتهِ عن بعضهِ وتمزّقهِ مع كُلّ تحرّك صغير. صارَ كقطعة من البسكويت المُنغمسةِ كُليًّا في كوب من القهوة الدّافئة. يالهُ من مثال شهيّ ورائع! النّوم؟ طبعًا لم أنل أيّ قسطٍ منهُ ودائما ما يحصلُ ذلكَ في هذهِ اللّياليّ الديسمبريّة الباردة.

ألفتُ المطر والبرد والجوع وحياة الشّوارع والتشرّد ومُطاردات الشُّرطة لنا أحيانًا. أو مُحاولات بعض العصابات لاستغلالنا والكثير من خبايا هذه المعيشة الضّنْكة. لكنّ ما يؤرقني كثيرًا وما يشُدّني مؤخّرًا هو روايتي الحبيسة، الرّاكدة، الّتي تُعاني كسادًا فكريًّا ولغُويًّا رهيبًا.

ومع ذلك لازالتُ أتصارعُ معها إلى أن يفوزَ واحدٌ منّا في الأخير. وحتمًا أنا من سيفعل. كتبتُ الكثيرَ من الرّوايات سابقًا، منها ما تُرجم لبعضِ اللّغات الأخرى ولكنّني أريدُ كتابة شيء مُختلف، رواية مُختلفة، رواية حقيقيّة لم

يسبق وأن تمّت كتابتُها أو التّفكيرُ فيها. وهذا ما سأفعلهُ بالتّأكيد.

توقّفت ضرباتُ المطرِ فوق علبة الكرتون الّتي تُشبهُ دقّات الطّبل بصوت خافت. علبة أفترشُها ومُتغطٍّ بها في نفس الآن.. خرجتُ من أسفل الكرتون تاركًا رجليَّ على امتدادهما داخلهُ وشبّكتُ يدايَ من البرد. كانت أوّلُ الحاضرينَ هي الرّاهبة.

جلستْ مُتّكئة على الجدار الذي يُقابلني ببدلتها السّوداء وبيني وبين امتداد رجليها نحو رجليَّ الممتدّتين سنتمتراتٌ قليلة فقط لضيق الشّارع. هي عشرينيّة مُتمرّدة لكنّها تُجيد دورَ الرّاهبة. لهذا وضعتُها في هذه الشخصيّة مع أنّها تودّ تغيير ذلك. أخرجتْ غليونًا من جيبِ معطفها وقدّاحة وراحتُ تُكرّر مُجاراة الرّيح المرّة تلو الأخرى لتُشعلهُ وفعلت في الأخير. نفثتْ بوقة من الدّخان في الهواء وداعبت بُخارها بيدها حتّى تلاشت وقالت: "ألم يحن الوقتُ بعد؟" ردّ عليها آرثر ضاحكًا بتهكّم: "أتوقُ لقتلكِ يا عزيزتي، لا تتسرّعي"؛ آرثر هو قاتلٌ تسلسليّ يبلغُ خمسة وثلاثين سنة. أعزبٌ ومُسجّل في كُلّ سجلّات البحث الأمنيّة وهو شخصيّة أخرى في روايتي.

وجدتُه قد جلسَ بقُربي على غفلةٍ منّي ومدّ رجليهُ أمامهُ يداعبُ بيديه سكّينهُ الحادّ بملل ينتظرُ هو الآخر أن يحينَ

الوقت. حضرَ من طرف الشّارع العشيقان إيّا وكلوي يمشيان نحونا يشُدّان على يديْ بعضهما بحُبّ وقبل أن يجلسَا قُبالتنا تقول الرّاهبة واصفةً إيّاهُمَا بنبرة خافتة: "مُقزّز"، مُشكّلةً الكلمة بطريقة مُقزّزة عبر شفتيها الورديّتين وهي تُتابعُهمَا بنظراتها الغائرة.. لم يعيراها بالًا ونظرَا إليّ وبدون أن يتحدّثَا، عرفتُ بأنّهُمَا سيُقولان نفس الشّيء وهو السّؤال المُكرّر دائمًا: "ألم يحن الوقتُ بعد؟"، أومأتُ برأسي للجّهتين راصًّا على شفتايَ بحسرة، ففهمَا أنّني أودّ أن أقول: "لا، لم يحن الوقت بعد"، دون أن أتحدّث، ولم يَرُدَّا.. اكتفيَا بالسّكوت والشّعور بالشّفقة عليّ وعلى حُبّهما.

حزنتُ عليّ وعليهم كلّهم وكدتُ أذرفُ بعض الدّموع على هذا الضّياع والتّيه. لكنّني لن أدع صغاري يروننني ضعيفًا أبدًا. أشعلتْ الرّاهبةُ سيجارة هذه المرّة وقرّبتْ فخذيها نحو صدرها ثُمّ استندت بساعديها على ركبتيها وراحت سارحة في تطاير الدّخان تحدّق فيه شاردة بعيدًا عنّا.. همّ كلوي بتقبيل إيّا وشردَا هُما الآخران شرودًا مغايرًا. أمّا آرثر! فانغمس في تحريك سكّينهُ في الأرضِ جيئة وذهابًا ليزيدَ من حدّتهِ.. وأنا اخترتُ الغرق في السّحاب ساندًا مؤخّرة رأسي على الجدار.

نجلسُ في شارع ضيّق يعُمّهُ السّكُونُ والبرد والظّلام. فوقنا إنارة خافتة تخرج من أحد النّوافذ. وبالقُرب

منّا حاويات قُمامة معدنيّة حيثُ يُشتهر أن توضع مكبّات القاذورات في هذه المنطقة في مثل هذه الممرّات لتأتي شاحنة مُخصّصة لنقلهم في أوقات مُختلفة من اليوم.

لا أدري لماذا أنا أحدّثكم عنها، حياتي ساذجة ولا شيء مُميّز فيها أبدًا. بعد قُرابة السّاعة من حديثي مع الرّاهبة وآرثر وإيمّا وكلوي على خُططٍ جديدة ومُحاولات كتابة أخرى تحرّك كيس قُمامة بالقُرب منّي، أهو كلبٌ ظالٌ آخر؟ تبيّن بعد أن خرجَ رأسهُ من هذا الكيس الكبير كأرنب بريّ أطلّ من جُحرهِ بأنّهُ شيخ مُسنّ مُشرّد مثلي.

لستُ شيخًا مُسنًّا لكنّه مُشرّد مثلي. "لستُ شيخًا أصلًا فأنا لم أبلغ الثّلاثة بعد". خرجت تلك الكلمات من فمهِ الّذي يُشبهُ كومتيْ لحمٍ تتضارب لعدمِ وجودِ أيّ سنٍ في فكّيه، باستثناء نابٍ واحد ووحيد يميل لونهُ بين الاصفرار والسّواد قد ظهر عندما تثائب مُطلقًا رائحة مُقرفة من فمه، وكأنّ فأرًا ميّتًا هُناك.

قال بصوت لم ينتهي بعد من شهيق التثاؤب: "صحيحٌ بأنّنا مُشرّدون وفقراء، لكنّ هذا لا يُبرّر تحدّثك مع نفسك في العدم هكذا بهذه الجديّة، إلّا إذَا كُنت مجنونًا يا صغيري"، نظرتُ لمكان الرّاهبة، آرثر، العشيقين: إيمّا وكلوي. لم يكُن هُناك أحدٌ أصلًا طيلة تلك المُدّة. نظرتُ

للشّيخ مرّة أخرى فحيّاني بقارورة خمر لوّح بها في الجوّ نحوي، نظرَ إليها ثُمّ إليّ وقال: "وتُعساء أيضًا"، وأعاد تخبئتها داخل الكيس واستندَ على كتفهِ ونام. في اللّحظة الّتي بعدها بدأ في الشّخير. أخرجتُ من محفظتي دفتر المذكّرات الّذي يُرافقني دائمًا. لأكتُب فيهِ قبل أن أنام في كُلّ ليلةٍ، هو صديقي الوحيد الّذي يعرفُ كُلّ أسراري والّذي أحبّهُ أيضًا..

ما يستفزّني فيه هو كمّيّة المُذكّرات والنّصوص اليوميّة الّتي أكتُبها فيه، بطريقة جميلة وبدون تكلّف. وفي كيفيّة سردها الّتي فيها بعضُ التّأثير الرّوائيّ عليّ في أسلوبها، وكأنّها رواية. ومع ذلك لا أستطيعُ كتابة رواية قصيرة! كتبتُ كُلّ ما جرى لي اليوم من أحداث، أهمّها حادثة أصحاب أقنعة الماعز البيضاء، قصّتي مع ذلك الكلب الظّالّ وسهرة العواء والسّمر مع المطر والتّطهّر من سواد النّفوس، وكذلك حادثة ذلك الأبله الّذي خرّب علينا جمال السّهرة.. وطبعًا! لم أنسى أن أنوّه عن ذلك الصّوت الملائكيّ الجميل، أدري بأنّ الملائكة لا تعوي ولكنّ صوتها الّذي خُتمَ بضحكةٍ مُسترقة لا زال يُكرّرُ في أذنيّ.

أعدتُ الدّفتر للمحفظة، واستندتُ عليها وقلتُ بصوت خافت أشبه بالعواء لا يُنطقُ إلّا بصوت زفير الهواء المُنبعث "آوو" ضحكتُ لذلك، ونمت...

06:25 صباحًا.

"...أقنعة بيضاء، عواء، كلاب، بوقُ سيّارة، اصطدام، عمود إنارة، صوت تحطُّم زجاج، ضحكة امرأة، صراخ، جري، الرّاهبة تداعبُ دخان سيجارتها، إيّما وكلوي يُقبّلان بعضهما بعضًا، سكّين آرثر، أقنعة ماعز بيضاء..."

تخرجُ كميّة أنفاسٍ تكادُ تسدّ حلقي من الفزع، استقيظتُ فجأة مُرتاعًا من كابوسٍ مُخيف! لا اللّيل قد انقضى ولا الصّباح قد حلّ بكامل بزوغه. ولا أنا نلتُ نومة هنيئة لهذا اليوم. عُمومًا كثيرة هي الأيّام الشّبيهة، أيّام بائسة أعيشُ فيها على نفس الوتر من نوبات الفزع اللّيليّة المفاجأة والتّوتر والصّدمات المكرّرة نهارًا. أمّا الجوع والبرد فهُما صديقايَ المخلصان.. أظنُّ بأنّ هذا الاستيقاظ هو بدايةُ نهاريَ لليوم. أشعرُ بالكثيرِ من الخمول والإرهاق والحاجة إلى النّوم لسويعات أخرى. لكنّني تغلّبتُ على نفسي وعلى عينيّ المحتضنتين بشدّة لبعضهما.

لكنّ الفُراق أبى إلّا أن يحول دون حاجتهما لأن يغُطَّا في نومٍ آخر. يُفتحا تارة ويُغلقَا أخرى، أرى هُنا وهُناك لأستوعبَ أين أنا! فكُلّ يومٍ أجدُ نفسي قد اخترتُ مكانًا للمبيت. رأيتُ ذلك للشّيخ المعتوه لا يزالُ في سباته، حقيقة حسدتهُ على ذلك.

نظرتُ للجهة الأخرى ولازال ضبابُ النّعاس يحجبُ عنّي الرؤية بوضوح فبالكاد أفتحُ عيني اليُمنى راصًّا على اليُسرى التي لم تشأ أن تفتح وها أنا أحاولُ التّركيز بعين واحدة. لمحتُ في رأسِ هذا المرّر، أو الشّارع الضيّق خيال شخص يقفُ هناكَ، لا يظهر كاملًا فجزء من جسده مُختفٍ في زاوية المنعطف، مرّرتُ عيني الوحيدة عليه لأتفحّص ملامحه.. اللّعنة! ما هذا؟ إنّهُ واحدٌ منهم؛ أصحاب أقنعة الماعز البيضاء!

الفصل الثّاني:
لقاء الرّاهبة

" ...هُناك حضرت الرّاهبة لأوّل مرّة في هذه المقبرة ورأيتُها وجهًا لوجه، كانت بلباسها الأسود المميّز، جميلة وشابّة لكنّ ملامحها باردة بشكل مخيف. تقف أمامي تشاهدُني بدون أن تحرّك ساكنًا. بدأت نبضات قلبي تتسارع وملامح التّعجّب ترتسم على وجهي أحدّق فيها بدون أن أتفوّه بكلمة، مُكتَفٍ بتأمّلها وكنتُ سأقبل انقضاضها عليّ إن كانت جنيّة ما..."

فلاش باك بعيد ...

كم أكرهُ الصّباح الّذي أكون فيهِ مُقيّدًا، مُرغمًا على فعل بعض الأمور الرّوتينيّة المملّة قبل الذّهاب إلى عمل مُمِلّ. أسيرُ في أحياء مُملّة بين أناسٍ مُمّلين. كُلّ شيء يدعو للضّجر فقط. أنهضُ في كُلّ صبح مُتكاسلًا من قلّة النّوم الّذي سرقتهُ رواية أبت أن تُكتب.

أعيش يومًا تافهًا لا يُمكن للإلهام أن يتقرب منّي فيه. الإيحاء الوحيد الّذي استلهمه من هذه الوجوهِ الميّتة هو فكرةُ العزلةِ الأبديّة الّتي لن أتعامل فيها مع أحدٍ منهم. على الأقلّ رُبّما سأتفرّغ لروحانيّة الرّواية بعيدًا عن هذا الوسط

الكئيب. لا أدري لماذا أنا ألطّخُ مسامعكم بهذه القذارة ولكنّها الحقيقة، مجتمعي بائس لازال تفكيرهُ بدويًّا مُتحجّرًا وكُلّ مُخطّطاتهم لا توضع سوى للأكل والنّوم والادّخار فقط. حاولتُ الهجرة أكثرَ من مرّة، لكنّني أتراجعُ في آخر لحظة لسبب لا أعرفُ ما هو إلى حدّ الآن.

رُبّما لانشغالي بكتابة روايتي الّتي لا أودّ أن يشغلني عنها شيء آخر يأخذُ جُهدًا فكريًّا منّي. لكنّها رغم ذلك تأبى أن تُستحضر كسابقاتها من الرّوايات، أحسّ بعجز رهيب.

تذكّرتُ موضوع الهجرة بعد أن سمعتُ شابًّا في أحد الطّاولات يتحدّثُ مع زميله عن ذهابهما مع وكالة سياحيّة ويتجادلون بين اختيارهم لإسبانيا أو أمريكا. ولأنّ الأحاديث غالبًا ما تكون مُكرّرة في هذا المطعم الّذي لا يزورهُ إلّا بُسطاء الشّعب فقط، قلّما تلفتُكَ مواضيع هكذا للاستماع. لدرجة أنّي سمعتُ نقاشهما بالتّفصيل من سعر الرّحلات واسم الوكالة وحتّى عنوانها! لا يهمّ.

أمن الممكن أن تكون آخر رواية كتبتُها قبل خمس سنوات هي الأخيرة لي؟ لا أظنّ ذلك، حتمًا سأستطيعُ الكتابة.. بالمناسبة، أعملُ نادلًا في هذا المطعم الّذي أقضي فيه جُلّ نهاري، كُلّ يوم أرى هذه الوجوه التّعيسة الشّاحبة لرجال ونساء لو كنتُ أكلة في طبق ما أمامهم لتوقّفت في حناجرهم اللّعينة وتركتهم يموتون، حتّى الأطباق الّتي

نُقدّمها لهم يأكلونها بملامح شاحبة وكأنّ عزاء ما قد خيّم هُنا. لا أريدهم أن يغنّوا للأطباق طبعًا. لكنّ ملامحهم ستُحاسبهم يوم القيامة على شدّها بهذه الطّريقة. كنتُ أبلهًا في السّابق عندما حاولتُ استحضار الإلهام عبر تأمّلهم، فالكاتب ابنُ بيئه، مهما أبدع وابتعد عنها في نصوصه فحتمًا سيظهرُ تأثيرها فيه بقصد أو بغير قصد.

لذا سأكتبُ انطلاقًا من بيئتي وهذا ما قرّرتُ فعله باستراق النّظر والسّمع. خاصّة لشابّة جميلة كانت تُدعى سارة، أظنّ بأنّ هذا اسمها.. كانت وفيّة لمطعمنا المتواضع اقتفيتُ أثرها وتقرّبتُ منها، تبيّن أنّها سكرتيرة لمدير أحد الشّركات بالقُرب منّا، نسيتُ أيّ واحدة منهم.

لكنّها كانت دائمة الزّيارة لنا وبدت مُختلفة بعض الشّيء. عزباء تقترب من الرابعة والعشرين من العُمر، لكنّها تبدوا مُجرّد مراهقة في الثّامنة أو التّاسعة عشر.. أوّل ما لفتني فيها أنّها تطلبُ طبقها بابتسامة ولأوّل مرّة أحسستُ بأنّني قدّمتُ طبقًا ليُأكل، فباقي الأطباق لغيرها من الزّبائن تُحسّ بأنّهم سيفترسون ما سيُقدّم لهم من طريقة طلبهم له بعبوس ونبرة تُشعركَ بأنّك أنت من تُصرّ عليهم ليأكلوا.. لو لم يكُن المسؤول على المعطم مُتشدّدا معنا قليلاً لقلتُ لهم بدل "بصحّتكم" خلف كُلّ طبق: "الرّهج". عُمومًا سارة اختفت منذُ مُدّة، سمعتُ بأنّها ستُسافر خارج البلاد، تمنّيتُ لو أنّني

مكانها، السّافلة، جعلتني أتوقّف عمّا كنتُ أكتبُه عنها، لكن لا يهم. لم يكن ما كتبتهُ عنها ذو قيمة ولا بالنّصّ العميق. بل مُجرّد مُحاولات لإحياء الذّات الرّوائيّة فيّ من جديد، وهذا ما لم يحصل طبعًا. على كُلّ سمعتُ بأنّها كانت تُمارس الجنس مع مديرها أصلاً، ولم تكن بذلك التّميّز الّذي كان يبدو عليها.. جرّبتُ مرّة أخرى أن أكتب عن أحد جيراننا الصّعاليك، رُبّما سيخلقُ ذلك بعض التّشويق والأكشن لعلّها تُساعدني، فوقع اختياري على جارنا وأحد مروّجي الحبوب المهلوسة والخمور وغيرها في الحي، هو جعفر "الصّونطروا" لا أدري لماذا ولكنّ أبناء الحيّ كانوا يُلقّبونه كذلك، ولقبهُ هذا هو اسمُ درّاجة ناريّة قديمة الصّنع.

عمومًا بعدما خضت شوطًا في روايته الّتي كنتُ سأضعُ لها عنوان "مئة وثلاثة"، سمع بأنّني أكتبُ رواية عنه، هو لا يعرفُ أصلاً ما تعنيه كلمة رواية فظنّ بأنّها مخطوط ما سأرسله إلى الشّرطة أو ما شابه، فأتى إليّ وتعاركنا وكدت أذوق طعنة سكّين منهُ لو لم أعطه ما كتبت ليحرقهُ أمامي.

ابتعدتُ عن عالم الغرباء في المعطم وعالم الصّعاليك واخترت هذه المرّة عالماً ورديًّا رومنسيًّا وهو أن أكتب رواية عن الحبّ، ولعدم قدرتي على الكتابة في هذا الموضوع من وحي الخيال على غرار فقدان شغف الكتابة كتبتُ قصّة حُبّ حقيقيّة لصديقيَّ في الجامعة.

في خاتمة الرّواية ظننتُ بأنّني سأختمها بزواجهما وأعطي نسخة لكُلّ منهما هديّة إلّا أنّه لم يقبل أهلها تزويجه منها، اغتصبها ليتمّ تزويجهُ إيّاها غصبًا عنهم ولكنّها رفضت لسبب ما، هو حاليا في السّجن وهي عزباء على الأرجح لن تتزوّج. فأحرقتُ المخطوط هذه المرّة بنفسي. وأقسمتُ الابتعاد عن بيئتي اللّعينة مُجدّدًا ومن بعدها توقّفت عن اتّباعي حيوات النّاس وخلقتُ حياة أخرى فيها شخوص وهميّة أخرى. سأحوّل شخصيّة سارة، إلى شخصيّة راهبة مُتمرّدة.

وشخصيّة جعفر إلى قاتل تسلسليّ سأجعلهُ مُلحدًا واسمّهِ عبد اللهّ، لا بعيدًا عن الحقد، سأسمّه توماس! أو رُبّما فيليب؟ لا "آرثر" سأسمّه آرثر أعجبني ذلك.

أمّا عن صديقيَّ العشيقين فسأطهّر حُبّهما الّذي انتهى بذلك الشّكل القذر وأجعلُ شخصيّتين في روايتي يُحبّان بعضهما وأسمّهما إيّا! وكلوي؟ نعم.. حياتي؟ لا يوجد جانب مُشرق فيها لأحكي لكم عنه. أعيش مع جدّتي، والدي تُوفّيَ منذ صغري، لا أتذكّرهُ حتّى وليس لدينا أيّ صور عنه، أمّا أمّي، اللّعينة، فتخلّت عني بعد وفاة والدي وأنا صغير وتزوّجت بشخص مجهول وسافرَا بعيدًا بعدما تركتني عند جدّتي ولم أرها منذُ ذلك الحين، ليست لديّ ذكريات كثيرة معها لأتذكّرها الآن.. جدّتي هي أبي وأمّي حاليًّا.

ليس لديّ إخوة أو أخوات، على الغالب أمّي قد تبرّزت بعض الصبية بعيدًا، القذرة. سعادة جدّتي عندما تراني أنا وكثير من الأحفاد الّذين نسكنُ معها منذ الصّغر نؤنس وحدتها، لكلّ منّا حكاية. كّلنا بين الخامسة والعشرين والثّلاثين من العمر، أحد عشر شابًّا نحنُ نسكنُ في منزل صغير بالكاد يسعنا جميعًا ولكنّنا نتكاتفُ على رعاية بعضنا بعضًا وعلى رعاية جدّتي. سمعتهم مرّة يتحدّثون بضجرٍ عن ضيق المكان بعدما كان واحد منهم سيتزوّج وليس هناك مُتّسع لضيف جديد.

كُلّ الغرف ممتلئة باستثناء غُرفة واحدة فيها اثنان منّا، لو نقصَ واحدٌ فقط من عددنا لاستطاع حبيب الزواج بحبيبته في هذا البيت. تذكّرت ما سمعتُه صباحَ اليوم في العمل عن رحلة سياحيّة نحو آمريكا لمدّة اسبوع، المبلغ؟ دعوني أختصرهُ في أنّه بمقدار نصف المبلغ الّذي يدّخره قريبي للزّواج، لن يعيرني إيّاه، لكنّني سأذهبُ به، لا تنظر إليّ هكذا وكأنّني سارق.. أتظنّ بأنّني سأعطي مكاني لمؤخّرة زوجته بالمجّان؟ عندما سأذهب سيتمكّن من زواجها لأنّ أحد الغرف ستكون شاغرة له.

نعم فكّرتُ في الموضوع مليًّا وقرّرتُ الذّهاب حقًّا هذه المرّة.. لن يلهيني شيء عنكِ، عزيزتي الرّواية، هذا السّفر من أجلك، لنجد أنفسنا في أماكن مُختلفة من هذه الأرض

الشّاسعة علّنا نستطيعُ أخيرًا إخراجكِ إلى النّور، وأكيدٌ سيحصلُ ذلك. لنذهب في رحلة العمر يا روايتي، سنجدُ الكثير من الحلول لحياتنا هُناك، من يدري قد نعيشُ حياة البذخ ونصيرُ ملوكًا. إنّها آمريكا يا عزيزتي، بلد الأحلام. ستُكتبين فيها ورُبّما تُنشرين هُناك أيضًا يا غاليتي. ستكونُ رحلتُنا بعد شهر من الآن. لا أدري كيفَ هي طبيعة الحياة خارج بلدي وأنا الّذي لم يزر إلّا قليلًا من المُدن والأرياف المحليّة الّتي تُشبه الوسط الّذي أعيش فيه كثيرًا.. لكنّني سأقبلُ المغامرة

فلاش باك قريب...

سطوتُ على نقود قريبي تلك اللّيلة! تأسّفتُ له في رسالة تركتُها لهُ في الغرفة وتمنّيتُ له زواجًا سعيدًا وقبّلتُ جدّتي وهي نائمة مُنتشيًا بالحُبّ الّذي يُستخلصُ من تجاعيد بشرتها وملمس خدّها الطّاهر.

تحسّستُ بعض الشُّعيرات الحريريّة البيضاء المنسدلة من تحت لحافها. نظرتُ إلى السّاعة وقبل أن أقف أمسكت بيدي قائلة: "كن رجلًا، دعواتي تُرافقك يا صغيري"، هل هي دعوة ككلّ دعواتها اليوميّة لي أم أنّ اللهّ قد أوحى لها؟ ابتسمتُ لها خرجت بدون أن ألتفت لها مرّة أخرى خوفًا من أن تغلبني دموعي، المهمّ! كنتُ قد حجزتُ سابقًا تذكرة

الذّهاب، حدثت بعضُ العراقيل ولكنّهُ تمّ قبولها في الأخير، صعدنا في الحافلة نحو المطار، إجراءات قانونيّة قبل الذّهاب ثُمّ صعدنا الطّائرة، كانت أوّل مرّة أركبُ فيها واحدة وبدأت رهبةٌ تسري في كياني من فكرة أنّنا سنطير فوق المحيط، لكنّني مثّلتُ دور غير المكترث لأبدوَ لبعض الجميلات كنّ خلفي بأنّني مُعتاد على السّفر، لا تتخيّلني فقيرَ المظهر لأنّ ذلك غير مُتوقّع منّي، فقد كنتُ أولي ملابسي أهميّة كبيرة ولا أشتري إلّا من محلّات البضاعة الأصليّة والجميلة، هذا لأنّ عوائد مهنتي في المطعم وبعض المشاغل الأخرى لم تكن تتوجّه لا إلى مسؤوليّة بيت ولا إلى حاجيات دراسة أو سفر أو شيء ما واضح لأنفق عليه غير ملابسي.

كنتُ روائيًّا بسيطًا لا يعيشُ إلّا بالكتابة والفنّ والحبّ ومهما أنفقتُ في هذه الأشياء من روحي فلن أبخل عليها. وصلنا إلى مطار آمريكا الدّولي، أرجوكم أن تعذروا نسياني لأسماء المرافق والطّرقات فبالكاد أستطعتُ تعلّم الإنجليزية. بالنّسبة للدّراسة! كنتُ طالب رياضيّات سابقًا، تشارجتُ مع الأستاذ ذات مرّة فتمّ إقصائي، لم أكن أحبّ الدراسة أصلًا لديّ زاد فكريّ ولغويّ في المجال الّذي أحبّه سيغنيني عن نظريّات فيثاغورس وإقليدس وغاوس وكوشي وغيرهم، والّتي لن أحتاجها إطلاقًا ولم أفعل سابقًا. سأعاني من عسر في حفظ وتذكّر المرافق والشّوارع هنا كونها غريبة

عمّا يمكنهُ حفظه على غرار لغة الحوار.. اسمُ أحد الأحياء في مدينتي "الدّشرة الكلبة".

مرّت قُرابة السّنة وشهرين هنا.. استطعتُ الفرار من موكب الوكالة خلسة لكي لا أضطرّ للعودة معهم في آخر الأيّام المبرمجة.. لم أكن لأتأقلم سريعًا، بلاد غريبة، حياة غريبة، وبدأت أشعرُ بأنّني سأتحوّل إلى مُشرّد حقيقيّ بعد أن كنتُ مُشرّدًا طموحًا وحالماً يرى من التّشرّد فرصة له للإتيان بالإلهام وإيجاد نفسه والتأمّل في الكون. فبالكادِ أستطيعُ توفير بعض القوت اليوميّ من الأكل! ولكن ليس دائمًا، فأنا لم أذق طعامًا منذُ يومين.. وهذا لن يجعلني أعيش حياة كريمة أصلًا حتّى أفكّر في كتابة رواية ما.

كنتُ في أحد الساحات العامّة، قرأتُ مُلصقًا إعلانيًّا دوّن فيه بأنّ ذكرى ميلاد كاتب ما اليوم! وستُخلّد عند قبره من قبل مجموعة شباب سيتناقشّون في مؤلّفاته ويقرؤون بعضها عند قبره عشيّة اليوم. فدخلتُ خلسة للمقبرة مع أنّهُ كان مسموحًا للغرباء بالدّخول، لكنّ مظهري بهذه الملابس البالية الرثّة وشعري الأشعث قليلًا سيوحون لهم بأنّني مُجرّد سكّير أو مُختلّ بالجوار ورُبّما يتمّ طردي أو التّبليغُ عنّي.

مشيتُ بين القبور وكان واضحًا وجودهم لتجمّعهم في مكان واحد عند أحد القبور، على الأغلب هو قبر كاتبهم المفضّل. هل سأصلُ لهذه المرحلة من تكريم ذكرايَ حتّى بعد

موتي؟..اقتربت منهم وبدأتُ أتأمّل قبرهُ مُتخيّلًا كميّة المؤلّفات الّتي كتبها وعايشها متسائلًا عن سرّه وكيفيّة استحضاره لإلهامه الخاصّ، كنتُ أحسّ بروحه قريبة جدًّا منّي، كان شعورًا مُميّزًا جدًّا، شعرتُ برغبة مُلحّة تدفعني إلى الدّخول في قبره والمبيت ليلة واحدة أو انتشال جثّته واحتضانها أو تذوّقها، كنتُ أودّ سرقة عضوٍ ما منه لأضعهُ أمامي أثناء الكتابة، انتهت العشيّة وحلّ اللّيل ولم أبرح المقبرة، أحومُ حول القبر. لم يكن البدرُ مُشعًّا أساسًا وغطّت بعضُ السّحب نوره ليزيدَ الظّلام حلكة، كانت المقبرة خاوية لا يوجد فيها أيّ ذات روح، غير الأموات هُنا..

ففي هذه المساحة داخل الأسوار كنتُ الحيّ الوحيد بالرّغم من كلّ هؤلاء النّيام في قبورهم. أشعرُ بأنّ هذا الكاتب حيّ الآن، أستبعثُ فيَّ روحك الكتابيّة بطريقة ما يا صديقي! شممتُ ضريحهُ مُتخدّرًا به أعانق حجارته الباردة وأتلمّسُ بعض الحشائش الطّفيليّة فوقه وبالقرب منه.

زادَت رغبتي وروحانيّتي في التّعامل معه وكأنّهُ حيّ بطريقة ما. نزعتُ قميصي بسرعة وبدأت نسائم الرّيح الباردة تلامس صدري مُنتعشًا بها.

حملتُ يديَّ إلى السّماء وأغمضتُ عينيَّ.. هُناك حضرت الرّاهبة لأوّل مرّة في هذه المقبرة ورأيتُها وجهًا لوجه،

كانت بلباسها الأسود المميّز، جميلة وشابّة لكنّ ملامحها باردة بشكل مخيف.

تقف أمامي تشاهدُني بدون أن تحرّك ساكنًا. بدأت نبضات قلبي تتسارع وملامح التّعجّب ترتسم على وجهي أحدّق فيها بدون أن أتفوّه بكلمة، مُكتَفٍ بتأمّلها وكنتُ سأقبل انقضاضها عليّ إن كانت جنيّة ما.

نهضت بسرعة من مكاني لأتفحّص ملامحها عن قرب، أقترب من وجهها لدرجة الالتصاق أدور حولها وهي تتّبع عينيَّ بنظراتها الباردة المرعبة، جثوتُ بالقرب من يديها وحملتُ يدي لألمس كفّها فسمعتُ صوت تحطّم شيء ما خلفي أقرب لصوت للزّجاج، استدرتُ فلم أجد أحدًا، نظرتُ للجهة الأخرى تحسّستُ صوتَ خشخشة أعواد صغيرة من أغصان الشّجر في الأرض وبعض الأوراق اليابسة تتكسّر من وقع خطوات ما تدوس عليها لكنّ صوتها اختفى فجأة! عدتُ للرّاهبة فلم أجدها، ولم أسمع أو أتحسّس كيف غادرت.

لمحتُ شيء ما بالقُرب من الاتّجاه الّذي كانت واقفة فيه، لا أظنّ بأنّهُ كانَ هُناكَ قبل قليل. تقدّمتُ منهُ بدون أن انتصب كاملًا أسير على ركبتيّ لقلّة المسافة وجلستُ عليهما عندهُ ورفعتُه قليلًا فسطع فيه نور عمود الإنارة خلفي، كان قناعًا، قناعًا أبيضًا بلاستيكيًّا لماعز، مُلطّخًا ببعض الدّماء.. لم

أكترث به كثيرًا، لكنّهُ أعجبني. فخبّئتهُ في محفظتي واستندتُ على شاهد القبر، فتحت مخطوط الرّواية لأكتب! لكن، وكالعادة.. بدون جدوى، لازلتُ غيرَ قادرٍ على الكتابة.. ولكنّني ما إن أفتحُ كتاب المُذكّرات لأدوّن ما عشتهُ من كُلّ يومٍ، يتحوّلُ العزوف عن الكتابة إلى رغبة جامحة..

أحبّ وأقدّس مذكراتي كثيرًا، أشعرُ بها أثناء الكتابة كثيرًا. أكملتُ حكاية اليوم من أيّامي الّتي لا تُشبهُ بعضها إطلاقًا، وبدأتُ أشعرُ بالنّعاس.. احتضنتُ محفظتي عند صدري، شعرتُ بالخوف قليلًا لكنّ شدة التّعب جعلتني أنام عند القبر، لم أستيقظ عنده، بل في المستشفى من ضربة برد قد أصابتني، بعد أن استوعبت أين أنا هرولتُ إلى الباب خفيةً أغلقتهُ من الدّاخل وبحثتُ عن محفظتي، تفقّدتُ دفتر المذكّرات وبعض الكتب الأخرى وخرجت من النّافذة، من شرفة إلى أخرى إلى عدّة شبابيك ثُمّ إلى الرّصيف، الإجراءات الرّوتينية في المستشفى من تدوين اسم وحالة المريض كانت ستوشي بي لو انتظرتُ قدومهم..

أقبلُ المرضَ على أن يتمّ حبسي. على كُلٍّ هي مُجرّد أعراض صداع وزكام ستزول بعد مُدّة.. نظرتُ إلى السّاعة فكانت السّابعة مساءً، هل نمتُ نهار اليوم بأكمله؟ تبًّا.. على الأقل أكلتُ وجبة الغداء من الفيتامينات الّتي تمّ ضخّها في دمائي. تجوّلت في الشّوارع لأجد شيئًا ما يُأكل، سرتُ بين

الكثير من الأحياء وحاويات القمامة والمطاعم عسى أن يتمّ إعطائي قليلًا ممّا سيُرمى ولكنّني لم أجد، سيمرّ اليومَ غالبًا بدون عشاء أيضًا. بدأَ الظّلامُ ينتشر مرّة أخرى وكأنّني أعيشُ يومين كُلّهما ليل.

رغم كثرة السّيّارات وكثرة الأشخاص في الجوار إلّا أنّني أستطيعُ تمييز بعضٍ منهم، يتكرّرون عليّ منذُ خروجي من المستشفى.. ليس لتشابه السّيّارات، بل هي نفسها أنا مُتأكّد.. صُدفة أم مُجرّد هلوسة منّي كما هلوستُ بالرّاهبة ليلة أمس؟ لا أدري.. مررتُ من شارعين آخرين لتمرّ عليّ مجموعة من الحمقى من سائقي الدّراجات النّارية يرتدون أقنعة غريبة، مشيتُ شارعًا آخرًا وتكرّرتْ عليّ مرور نفسِ السّيّارة الّتي شاهدتها أكثر من خمس مرّات تطوف هنا وهناك. أعليّ الشّعور بالحيرة الآن؟ أظنّ ذلك.. رأيتُ شخصًا واقفًا بلباس أسودٍ مُتّسخ في شارعٍ خالٍ من النّاس يقفُ عند أحد أعمدة الإنارة يرتدي قناعًا أبيضًا لوجه ماعز رُبّما.

أهيَ صُدفة أنّهُ عمود الإنارة الوحيد الّذي يشتغل وينطفئُ بطريقة غريبة بالرُّغم من وجود العشرات من أعمدة الإنارة في هذا الطّريق أم أنّ عليّ حقًّا الشّعور بالخوف؟ وكيف يتمّ تفسيرُ أنّ شارعًا كبيرًا مثل هذا في وقت ليس مُتأخّر من اللّيل يكون خاليًّا بهذا الشّكل؟ لا أناس ولا

محلّات مفتوحة ولا حركة فيه؟ نظرتُ للخلف لأجد الشّارع الآخر منير بإضاءة المحلّات ومكتظّ بالنّاس ومليئ بالحياة، نظرتُ للآخر نفس الشّيء. ماذا يحدث هنا؟ أعدتُ النُظر لصاحب القناع لأجدهُ قد اختفى.. غريب.. اه؟ إنّهم يرتدون نفس القناع؟ القناع الّذي وجدتهُ اللّيلة الماضية في المقبرة. ما علاقة ترابط هذه الأمور الغامضة؟ هل أنا واقع في ورطة بسبب القناع أم ماذا؟ لم أشأ رميهُ حتّى لا أزيدَ الطّين بلّة فرُبّما هم لم يأتوا لأجله أصلًا.. إذًا ماذا؟ هل هم يتعقّبونني منذُ مدّة أم أنا من أوقعتُ نفسي في مرمى النّيران بسبب الاحتفاظ بالقناع؟ ما سرّهم يا تُرى! صوتُ احتكاك عجلات خلفي، سيّارة تتوقّف فجأة. كانت في طرف الشّارع، سرتُ مهرولًا إلى الأمام لألاحظ درّاجتين ناريّتين أمامي، يضع صاحباها أقنعة ماعزٍ بيضاء أيضًا، هذه الأقنعة اللّعينة. كان الشّارع واسعًا طويلًا يحتوي الكثير من الممرّات والشّوارع الضيّقة في جانبيه، كان أوّل ممرّ بالقرب منّي على بعد خطوات فقط، اتّجهتُ إليهِ مُحاولًا الفرار عبره، وفي أوّل خطوة قابلتني درّاجة ناريّة ثالثة مُتوقّفة يعتليها واحد من أصحاب الأقنعة الحمقى.

لوّح لي بغرابة فعدتُ للشّارع الكبير قابلني منعطف لشارع يبعد أمتارًا قليلة فقط توجّهتُ إليهُ مسرعًا، انعطفتُ من خلاله فلم أجد أحدًا فأكملت جريًا أحاول تظليلهم

ورحتُ أنعطف بعشوائية في كلّ اتجاه يقابلني. لكن للأسف، تقفّوْا أثري، وجدتُ في رأس الممرّ درّاجة تسدّه، وخلفي درّاجتين أخريتين.

توقّفتُ مكاني لبرهة مفزوعًا غير مدرك لطبيعة ما يحصل الآن. أيّ عالم أقحمتُ نفسي فيه! ابتعدت الدّراجة الّتي أمامي قليلًا فمرّت بجانبها سيّارة سوداء ضخمة رباعيّة الدّفع، ليس لديّ مكان للهرب من هذا الشّارع سوى الوقوف ومعرفة ما قد يحصل بعد لحظات. أو رُبّما ما قد يحصلُ لي.. توقّفت السّيّارة أمامي، عدتُ خطوات للخلف حتّى أصطدمَ ظهري بالجدار وبقيتُ مُلتقصًا به أشاهدُ في مرايا السّيّارة السّوداء، لم تكن مُمرّرة للرّؤية. أسأموتُ هُنا أم سيتمّ اختطافي أم ما الّذي سيحدث؟ لماذا عساهم يفعلون ذلك؟ لن أفيدهم بشيء وأنا مُجرّد مُتشرّد بغيضٍ يجوبُ الطّرقات من أجل لقمة عيش.. أظنّهم مخطئون في الشّخص، ليست لديّ مشاكل مع أيّ أحد في هذا البلد الكبير! فُتح الباب الّذي بمُحاذاتي ونزل منه شخص مفتول العضلات يحملُ خنجرًا أقرب للسّيف في طوله لكنّهُ أعرضُ منه.

تحرّكتُ خطوات بعيدًا عنه فسدّت طريقي حاوية القمامة وانحصرتُ بين الجدار خلفي والسّيّارة أمامي وحاوية قمامة كبيرة معدنيّة على يميني أقرب إليّ في الطّول ولن يكفيَني الوقت حتّى لمحاولة القفز فوقها فبقربهِ هذا لو مدّ ذراعهُ

نحوي لشقّني هذا السّكين إلى نصفين. وهو كان على يساري لأكون كعصفور دخل القفص بنفسه.

لم أحاول النّظر لملامحه المخيفة بالرُّغم من أنّها مُجرّد بلاستيك مصنوع ولكنّها كانت مخيفة لنظراتها الجامدة وبعض زخّات الدماء عليها. أقتلوا أشخاصًا قبلي وأنا التّالي؟ فتح لي الباب، دلفتُ معهُ داخل السيّارة وجلستُ بينه وبين شخص آخر على نفس هيئته المرعبة. ماذا يودّون منّي! من هؤلاء؟ لماذا أنا وهل يعرفونني ومن بعثهم وما علاقتي.. أسئلة بلا جواب، رُبّما سأعرفُ الجواب ورُبّما سيتمّ قتلي والتّنكيل بجثّتي قبل أن أعرف..

تمنّيتُ للحظة لو أنّني بقيتُ في منزلنا المتواضع وبقيتُ مُجرّد نادل بسيط في مطعم لا يبعد عن مكان إقامتي كثيرًا، لم أكن أظنّ بأنّ هذا سيحصل، ولكنّني حقًا اشتقتُ ملامح أبناء مدينتي الّشاحبة والباردة فهذه الملامح البلاستيكيّة الجامدة أشدّ بؤسا منها.

العودة للزّمن الحقيقي...

والآن أنتم تعرفون قصّتي الكاملة، وقصّتي الّتي بدأت لتوّها مع أصحاب أقنعة الماعز البيضاء. تُرى كيف ستنتهي؟

الفصل الثّالث:
دعوة مشؤومة، ودعوة ميمونة. أيّهما الأصحّ؟

" ... أسمعُ صوت الكهرباء تتقطّع وتتآكل في عمود الإنارة أمامي بشكل أوضح وأغرب من ذي قبل.. أسمعُ صوت سكّين يُحزّ في الأرض، يُجهّزُ للذّبح، كنتُ في لحظة صفاء جعلتني أرفعُ رأسي للأعلى تاركًا عُنقي واضحًا لعلّ الأمرَ ينتهي بسُرعة بدون أن أفتح عينيَّ..."

تابع للفصل الأوّل...

... انتفضتُ في مكاني مُنتصبًا قليلًا بدون وعيٍ وبقيتُ مُحدّقًا فيه، مالَ برأسهِ قليلا ليظهر وجههُ كامًلا، أو أقول، وجهُ تلك الشّاة البلاستيكيّة.. حملَ يدهُ في الجوِّ بهدوء وحُملت معها مشاعرُ الخوف فيّ مع صوت دقّات قلبي الّتي زادت وأنفاسي الّتي تسارعت، مُجهّزًا نفسي للفرار في أيّ لحظة مُمسكًا بمحفظتي وباسطًا كفّ يدي الأخرى في الأرض لأساعد نفسي على النّهوض والجري قبل أن يصل إليَّ إن هو تقدّم منّي، لكنّهُ لم يفعل..

اكتفى بالتّلويح بيديهِ ثُمّ شكّل بإصبعيه الخُنصر والإلهام مُجسّمًا لسمّاعة الهاتف مُغلقًا باقي الأصابع. أيّ إيحاء هذا؟ أيريدُ منّي أن أتّصل به؟ لكن كيف؟ غريب، اه!

الظّرف؟ ضربتُ على جيوبي ولم أجده، نفضتُ مناطق مُختلفة منّي بعشوائيّة أربتُ على كُلّ مكان من الممكن أن يكونَ فيه هذا الظّرف اللّعين. أعدتُ النّظر لصاحب القناع فإذا بهِ قد اختفى..

سارعتُ للمكان الّذي كان واقفًا فيه بجُرأة منّي ولم أجد لهُ أثرًا رغم طول الشّارع الّذي لا يُمكن أن يجريه في هذه المدّة القصيرة. ترجّلت بسرعة مرّة أخرى لأصل إلى مكاني الأوّل، أرى مرّة فيه ومرّة خلفي أين كان واقفًا ذلك الأحمق، وصلتُ وقلبتُ فراش الكرتون ومحفظتي رأسًا على عقِب! ولم أجد أيّ ظرف أو ورقة غريبة عدى دفتر مُذكّراتي أو بعض الكُتب والرّوايات الّتي أحملها معي..

أعدتُ تفقّد جيوبي واختلطت عليّ أماكنُ البحث رغم قلّتها فصرتُ أكرّر ضربات البحث على مناطق مختلفة من جسمي. ولم أجد شيئًا.. أيقظتُ بجلبتي ذلك الشّيخ الهرم بجانبي فبدأ يتأمّلني بغرابة وكأنّها صحّت عليّ علاماتُ الجنون الّذي وصفني به في وقت سابق من اللّيل! أستطيعُ موافقتهُ بأنّ ملامحي الآن بهذا الارتياب قد تعودُ لمجنون حقًّا، فعلاماتُ التّشتت والحيرة والرّعب بادية على تفاصيل وجهي وعلى عينيَّ اللّتين اتسعتا، واتسعتا أكثر عندما رأيتهُ وخطرت في مُخيّلتي إمكانية سرقته للظّرف أثناء نومي..

تقدّمتُ منه بغضب فاستقام في مكانه قليلًا خائفًا من طريقة سيري نحوه كثورٍ إسبانيّ لمح احمارارًا في حلبة المبارزة. حملتُ كيس البلاستيك الّذي كان ينام تحتهُ مُحتمٍ من المطر، كانت بقربه بعض الخردوات، من بينها محفظة نقود فارغة على الأغلب وقارورة الخمر وصورة طفلة صغيرة، لكنّ الظّرف لا يوجدُ بينها، أظنّ بأنّ هذه المراهِقة في الصّورة قد تكون ابنتهُ.

آلمني المشهدُ قليلًا فمددت يدي لحملها وإذا به يصرخ في وجهي ويخرج سكّينًا لم ألحظ وجوده وخدشني في ساعدي خدشًا بسيطًا، لم يكن عميقًا لكنّهُ سيُخلّف ألماً لأيّام في هذا البرد، وندبة طويلة الأمد. ابتعدتُ عنه. يشدُّ على تلك الصّورة بشدّة ويشير بالسّكين إليّ. لم أقترب منه، تحوّلت ملامحهُ السّخيفة إلى أخرى قاسية لا تُشبه الأولى إطلاقًا. عدت بخطواتي للخلف وجمعتُ محفظتي وأوراقي ومشيتُ مُبتعدًا عنهُ شادًّا على ساعدي علّني أخفّف النّزيف والألم، لأخرج من هذا الشّارع اللّعين؛ مررتُ على نفس المكان الّذي ظهر فيه ذو القناع، سرتُ من نفس المنعطف الّذي اختفى فيه.. أرى في الأرجاء عساني أجدهُ، أو أجدُ ما قد يقودني إليه.

لا أدري لماذا قد أفعل ذلك، ولكنّ العيشَ في خوف ورعب وحزن أفضل من العيش في وضع لا أفهمهُ أصلًا، لأفهم كيف سيكون حلّه. سمعتُ تَحرُّكًا خلفي، نظرتُ

بسرعة خوفًا منهُ أو من أن يكون ذلك الشّيخُ قد جُنّ وجاء ليطعنني خلسة. لم يكن لا هذا ولا ذاك.

بل مُجرّد كلب يرتشفُ بلسانه بعض المياه من بركة صغيرة مُضمحلّة ملأها المطر. كلب؟ الكلب؟ معطفي؟ الظّرف؟ اللّعنة. إنّ الظّرف في معطفي الّذي تركتُه مع ذلك الكلب المشرّد.. يستحيلُ أن أجدهُ فالكلابُ الظّالّة لا تبقى في مكان واحد غالبًا. وإن وجدتهُ فلا أظنّ بأنّي سأجدُ المعطف، عدتُ من حيثُ أتيتُ مسرعًا أجري كعدّاء لأصل إلى نفس الشّارع الّذي كنتُ نائمًا فيه بالقرب من ذلك السّكير، انعطفتُ إليه بسرعة فائقة محاولًا عبوره عودة لنفس الشّارع الّذي كان فيه الكلب قبل ساعات علّه يكون قد أسقطهُ هناك.

رآني الشّيخ قد انعطفتُ في اتّجاهه بتلك السّرعة فارتعب المسكين ظانًّا بأنّني آتٍ إليهُ فتحوّل فجأة إلى شابٍّ يجري أمامِي حاملًا كيس البلاستيك وما اكتفت به يداهُ من خردواته الغريبة الّتي بدأت تسقطُ خلفه وهو يجري كأيّ شيخ هرم في سنّه بقصر قامته وظهره المنحني قليلًا يرمي بنظراتٍ وراءه مُحرّكًا عنقهُ المجعّد فاتحًا فمه الفارغ يلهثُ من التّعب، توقّف عن إجهاد نفسك يا شيخ وعد لنومك..

استطعتُ الوصول إليه في مُدّة وجيزة ومررتُ عليه مُكملًا طريقي فأسمعُ وقع خطواته تتوقّف ببطء لا يدري ما

الّذي يحصل، بدون أن أستدير أسمع صراخه الأشبه ببالونة هواء بلاستيكيّة تخرج الهواء منها أثناء شدّ وتضييق فتحتها. حمل صخرة كانت بالقرب منه ورماها صوبي بدون أن تصل إليّ. وأكملتُ الجريَ منعطفا إلى الممرّ الآخر، ثُمّ الشّارع الرّئيسي إلى أن أصل أخيرًا بعد عدّة شوارع وممرّات إلى نفس الشّارع الّذي كنتُ فيه مع الكلب. لا الكلبُ قد كان هناك ولا معطفي ولا حتّى الظّرف الّذي احتملتُ وقوعه من المعطف.

تأكّدت من أنّني في نفس الشّارع خوفًا من أن أكون قد ذهبتُ إلى غيره لتشابه الممرّات والشّوارع في عمرانها وذلك بعدما رأيتُ شظايا الزّجاج لازالت في مكانها.. بحثتُ قليلًا ثُمّ اتّجهتُ إلى بعض الشّوارع والأحياء القريبة باحثًا فيها شبرًا بشبر لغاية بلوغ منتصف الصّباح. أُنهكتُ من السّير والعودة في نفس الأماكن ولم أحصل على شيء.

جلستُ في حديقة بالجوار، ليست حديقة فخمة بل مُجرّد واحدة جرداء لا يزورها إلّا الفُقراء ومن هم على حالي. استلقيتُ في هذا الكرسيّ الخشبيّ البارد ألعنُ ما آلت إليه حياتي فجأة. تحسّستُ أناملًا تفركُ خصلات شعري الّتي طالت وتجعّدت، كفّان يحملان رأسي ويضعانهِ على فخذي هذا الّذي يجلسُ خلفي.

نظرتُ للأعلى فوجدتُ بأنّها الرّاهبة، لم نتكلّم، بقيت تمرّر أطراف أصابعها على خديَّ بحنّيّة فعدتُ طفلًا صغيرًا أمام شخصيّة من روايتي.. تربّع العشيقان أمامي في الأرض بجانب الكرسيّ يرمُقانني بحيرة وحزن ليتقدّم آرثر منّي قائلًا: "أنا هُنا لأقتل كُلّ من يتجرّأ على أذيّتك يا صديقي" فاستقمتُ في جلوسي صارخًا شادًّا بكلتا يديَّ على ناصيتي: "ابتعدوا عنّي، أنتم مُجرّد شخصيّات وهميّة لعينة، ابتعدوا.." بدأ جميع من هم في هذه الحديقة بالتحديق فيّ بغرابة ومن حقّهم فعلُ ذلك مع مختلّ مثلي.. كلّهم بدوْا مُستغربين إلّا شابّة غريبة المظهر تقدّمت منّي.

ليست غريبة لأنّ لها إطلالة فقرٍ أو مُشرّدة مثلي، كانت جميلة بيضاءٌ مُحمرّة الخدّين مُستعملة مساحيق التجميل بطريقة سيّئة، أو جميلة بطريقة غريبة.. شفتاها بنفسجيّتين داكنتين أقربَ إلى السّواد، وإضافة إلى الهالات الواضحة المحيطة بمُقليتها زادت السّوادَ سوادًا آخرًا، ليس قبيحًا لكنّه غريب أقرب إلى القُبح..

تضعُ عدّة حلقات في وجهها، واحدة بين فتحتي أنفها، واحدة في طرف شفتيها والأخرى في نهاية حاجبها، الحلقة الجميلة الوحيدة هي الّتي كانت في غمّازتها. شعرها عبارة عن ظفائر سوداء مُجمّعة فوق رأسها بطريقة دائريّة.. لديها بدلة أشبهُ بفنَّانِي الرّوك، أو البلاك ميتال. أو مُتتبّعي هذا

الفنّ.. حذاء أسود ذو كعب عال ببعض الشّرائط وسروال أسود هو الآخر مُدّبب بأهراماتٍ معدنيّة صغيرة على طولهِ في جانبيه، وتي-شيرت يصلُ لسرّتها بالرُّغم من هذا البرد اللّاذع تظهر منهُ قلادة كبيرة لا تمتّ للأنوثة بصلة وبعض الوشوم البارزة من صدرها.. ومن بطنها صاعدة من فخذيها.. لا تلوموا لي هذا الوصف الدّقيق لها، الجميع يحدّق بها. منهم من يفعل ذلك لغرابتها ومنهم من يحدّق في مفاتنها البارزة فتفاصيل انحناءات خصرها ومؤخّرتها البارزة تظهر بشكل جليّ لمن يقصد أو لا يقصد النّظر إليها..

لم أكن من الفئتين. بل كنت أراها لكونها مُتقدّمة نحوي بتمايل جسمها مع خطواتها المنسابة مع جسمها الممشوق. وصلت وجلست بدون أن تلقي التّحيّة ولم تنظر إليّ أصلًا، جلست في الطّرف الفارغ من الكرسيّ وبدأت تتأمّلني النّظرات المرتابة منها من الجموع المارّة حولنا. نطقت بإنجليزيّة ذاتِ لكنة إسبانيّة جميلة:

-يا لهم من حمقى؛ كم أمقتُ نظراتهم هذه

نظرتُ إليها بدون أن أردّ عليها فأكملت:

-هل أبدو لك وحشًا أنت أيضًا؟

تأتأتُ غير مُنتظر حلول نقاش بيننا وقلتُ بلغتي الرّكيكة

-لا، لا أظن ذلك.

نظرت إليَّ بابتسامة مكسورة، كانت تحملُ ملامح فاتنة حقًّا، فاستبقيت ابتسامتها تلك بقولي:

-أنتِ جميلة.

شكرت لي ذلك بلكنتها الجذّابة، طالما أحببتُ اللّغة الإسبانيّة. توقّفنا على حال السّكوت للحظات ثُمّ سألتني.

-ما اسمك؟

-آدم

-هل تسكن هنا؟

-لا، في الحقيقة.. أسكنُ في كُلّ مكان.

ضحكتُ وضحكتْ وتأسّفتْ على سؤالها بعدما اتّضح لها بأنّي مُجرّد متشرّد ينامُ أينما جاء به النّعاس. ويأكلُ حتّى لا يموت جوعًا فقط. صمتنا لبرهة ثُمّ قالت:

-هل تعمل؟

-لا، ولكن..

استغرقت لحظة أفكّر، هل الرواية عمل؟ ثُمّ أجبت:

-أنا أعمل على رواية أكتُبها.

نظرت إليّ بعينيّ التّعجب، كانت لها نظرات تخفي الكثير من الأسرار، كنتُ أحبّ الغموض فغرقتُ فيهما.. قالت بشوق بعد علمها بأمر الرّواية، ربّما الغريب في الأمر أن مُشرّدًا يكتبُ رواية.

-رائع، هل لي أن أقرأ ما كتبت؟

-آسف، هناك أكثر من مخطوط أكتبه فأرميه لأعيد من جديد.. لكنّي سأكتبها قريبًا ورُبّما سيُصادف أن تقرئيها يومًا ما، أتمنّى أن تُعجبكِ.

-بالتّأكيد، سأعملُ على ذلك.

نظرنا في نفس الآن لشخص يلتقطُ لنا بعض الصّورة للسّخرية، منظرها الغريب والملفت مع منظري التّافه الرّث.

حملنا أصباعنا الوسطى مع بعض في نفس الآن ناحية الصّورة وضحكنا لذلك بعدما تنحّى صاحب الكاميرا جانبًا وأصبح محلّ سخرية ممّن هم بالجوار بعدما أراد لفت انتباههم بهذا الفعل السّخيف.

حملت حقيبة اليدِ خاصّتها ونهضت معتذرة بعدما تمنّت لي التّوفيق وأنهت ذلك بابتسامة جميلة ومشت بضع خطوات، توقّفت وعادت إليّ وهي تمرّغُ يدها هنا وهناك داخل حقيبتها فأخرجت بطاقة عليها عنوان ما، ودعوة لحفلة موسيقيّة بعد أسبوع من الآن.

أشارت بها إليَّ بابتسامة بين الودّ والبرود. بين اللّطافة والغرابة.. نظرتها كانت عميقة فيها شيء ما غير واضحٍ جعلني أمسكُ الورقة بسرعة وأقبلُ طلبها بعد أن سألتني إن كان بإمكاني القدوم.. فوافقت. وقالت بأنّ لديها عرضُ عملٍ تتمنّى مني قبوله. سألتها عن ماهيّة هذا العمل،

فقالت عملٌ أدبيّ سيُوفّر لك نشر روايتك، هُنا في أحد دور أمريكا للنّشر والتّوزيع..

طبعًا سأفعل، طبعًا وافقت، نهضتُ من مكاني وبدون أن أشعر عانقتها فبادلتني العناق وربتت على ظهري، طبعتْ قُبلة على خدّي أقرب لشفاهي جعلتني مُرتبكًا بهَا ثُمّ استدارت وراحت صوب بوّابة الحديقة وأنا أتتبّعها إلى لحظة خروجها ولحظات مرورها خلف السّياج خارجًا حتّى عبرتْ كامل الطّريق واختفت. أهو حلمٌ سيتحقّق؟ جلستُ غير مُصدّق والضّحكات المتقطّعة تتواتر في كلّ مرّة تزيدُ الضّحكة قهقهة فحملتُ نفسي إلى وسط السّاحة أجري كالمُختلّ أرقصُ وأعانق المارّة وأدور ببعض الأشجار ورميتُ بجسدي في النّافورة كغطّاس ماهر. لكنّني نهضتُ من تحت الماء مدميًّا ببقعة حمراء في ناصيتي جعلت وجهي أحمرًا مُخلّفًا بعضًا من دمائي في ماء النّافورة بعد أن ضُربتُ بأنبوب ضخّ المياه الّذي لم يكن عميقًا.

جاء بعضُ أعوان الأمن حملوني مُشتّتًا بقليل من آثار الدّوار ورموني ككيسِ قمامة عند الباب. جلستُ أسفل شجرة في الرّصيف أغنّي تحت إيقاع صوت معدتي الجائعة جدًّا. غنّيتُ عن الحبّ عن الوطن عن الحياة والفنّ، غنّيتُ بصوتٍ عالٍ أشاهدُ إيمًّا وكلوي يتراقصان حولي، نزعت الرّاهبة عبائتها ورمتها جانبًا وبدأت ترقصُ وتغنّي معي،

دخل آرثر حلبة الرّقص بعد أن رمى السّكين بعيدًا وغنّى معنا، تقدّم من الرّاهبة فعانقها وشدّا يدي بعضهما وبدآ في الدّوران والرّقص بحبّ مع العشيقين اللّذين أكملا معي فرقتي الغنائيّة.

توقّف بالقُربِ منّي شخصٌ غريب، يحملُ جيتارة كانَ يعزفُ بها داخل السّاحة وبدأ يطوف حولي ويعزفُ بإيقاعات مُناسبة جدًّا، أثّر فيّ ذلك فغنّيتُ بصوتِ أعلى وزاد من حماسِ الجوّ بعزفه الرّائع.. تقدّمت منّي الرّاهبة، أو لم تعُد الرّاهبة بعد الآن، سأسمّها باسم آخر لاحقًا. أمسكت يدايَ وقالت: "لا يجبُ أن تكون قويًّا دائمًا، دع هذه الدّمعة تسقط" ولمست جفني، كانت ساحرة الجمال والصّوت..

استطاعت تفجير مخزون الدّموع الّتي لم أبكها طيلة حياتي! ضحكتُ بشدّة، بكيت بنفس الشدّة الآن. أغنّي وأضحك وأبكي في اللّحظة ذاتها. تأثّرت الرّاهبة من منظر العيون الّتي ارتسمت عليّ، طفل صغير كان يبكي وتحوّل ضاحكًا، كنتُ أتجدّد، أتطهّر، عشتُ اللّحظة ودخلتُ حلبة الرّقص في الرّصيف مع شخصيّاتي ومع الجيتاريست ولم ألحظ وجود أحدٍ بالقُرب منّا! إلّا أنّني اكتشفتُ أنّهم تجمهروا حولنا، صفّقوا وتفاعلوا وغنّوا معنا ودخل بعضُ الفتيان والفتيات للرّقص معنا، توسّعت الحلبة وسعدتُ برؤية آرثر بهذا الوجه المختلف، بدون سلاح، وتخلّت الرّاهبة عمّا يُثبّطها

عن العيش والرّقص فكان لا يفارقها العبوس والشّحوب، أراها تضحكُ سعيدة.. إيّها، كلوي.. الجميع يزفّ سعادته بالرّغم من كلّ شيء.

كذلك أنا. رمى شخصٌ من الحضور عملة نقديّة بالقُرب منّا، كرّر شخصٌ آخر فعلتهُ فقام الكثيرون بنفس الأمر لتيغيّر لون بلاط الرّصيف إلى عملات نقديّة وورقيّة. دام الأمر لمدّة حتّى أجهدنا من الغناء والعزف، صفّقوا لنا وبدأوا بالتّواتر للذّهاب، حمل صاحب الجيتارة آلتهُ وتنحّى جانبًا ليقطع الطّريق قاصدًا الذّهاب. بدون أن يحملَ معهُ قرشًا واحدًا من النّقود. فناديتهُ:

-يا صديقي! هاااي.. نقودك! لم تأخذ شيئًا منها؟

-لا يا عزيزي.. هي لك. لقد أخذتُ حصّتي عبر تفريغ الشّحنة السّالبة فيّ، حصّتي هي ما عشته من فنّ في تلك الدّقائق.. شكراً لك.

مرّت الحافلة بالقرب منه، كان بابها مفتوحًا فصعد إلى داخلها دون أن تتوقّف وأكمل حديثه من خلال وقوفه في أوّل درج من بابها مُتمسّكًا بعمود حديديّ يعتمد عليهِ الرّكاب الواقفون.

عش بالفنّ يا صديقي، الفنّ حياة.

ضحكتُ للطافته، حيّيتهُ بعلامة النّصر، وقلتُ في نفسي أنا أيضًا حصّتي هي الفنّ. اشتريتُ بكُلّ تلك العملات

من محلّ أكلات سريعة بالقرب من سور الحديقة لرجلّ مسنّ لم أرى أحدًا تقدّم منه طيلة مكوثي هنا. العديد من السّندويتشات الطّازجة الشهيّة. حضّرها سريعًا وحملتُها في سلّة استعرتُها منه ولم يكن له ألّا يوافق لطيبة قلبه البادية على ملامحه ونظراتهِ المسنّة البريئة وضحكته ولطافته في التّعامل خاصّة بعد أن علم بأنّني سأستعيرها لأحمل ما طهاهُ لي لأوزّعه على المشرّدين في الحديقة الّتي تعتبر ملجأ لهم لعدم زيارتها من نخبة المدينة كونها بسيطة جدًّا.

بل حمل معي السّلّة وأغلق محلّهُ ريثما يعود؛ مشينا إلى الطّرف الآخر من الطّريق نحو الحديقة وبدأنا نجول ونطعم كلّ مشرّد، ونسقيه بما تبرّع به صاحب المحل من قارورات ماء ومشروبات غازيّة.. الجميع سدّ القليل من جوعه وعطشه. أخذتُ حصّتي مثلهم. لكنّ حصّتي الأكبر كانت هي الفنّ.

نهضتُ من قيلولتي بعد تعب الصّباح، كنتُ نائما على أحد كراسي الحديقة. كانت الحديقة جرداء أيضًا من البشر هذه المرّة. لم يكن هُناك أحد غيري فيها، إلّا قلّة قليلة منتشرة في الأفق لاتّساع مساحتها. كانت الشّمس تعاكس الشّتاء وتعاندهُ في جعل الجوّ دافئًا ولطيفًا في منصف ديسمبر. مع أنّ بعض الغيوم البعيدة لازالت مُلبّدة ومُشبعة بالمطر، ورُبّما الثلوج أيضًا.. أيّام قاسية جدًّا قادمة.

مرحبًا..

نطق صوتُ امرأة خلفي: أتسمحُ لي بالجلوس؟

أيّ ابتسامة هذه؟ ارتبكتُ في الرّدّ وتلعثمتُ غير قادرٍ على النّطق فكانت إجابتي بإن تنحّيتُ جانبًا تاركًا لها مكانًا للجلوس. جلست وهي ترمقني بنظرات إن لم تتوقّف عنها حالًا لآمنتُ بشيء ساذج طالما استهزأتُ بفكرته، الحُبّ من النّظرة الأولى كما يُسمّى.. مدّت يدها نحوي وقالت: أنا مارينا..

صافحتها وقبل أن أتكلّم بقيت أحملقُ في اخضرار عينيها أسيرًا بهما فضحكتْ لغرابتي بلطف وليتها لم تفعل، كانت الرّاهبة تقف خلفها – لم تعد راهبة فحتّى بدلتها كانت قد رمتها – انتظرتُ منها أن تقول "مقزز" لكنّها بدأت تشدّ على كفّيها بأنوثة مقرّبة إيّاهما عند خدّيها تحرّك رأسها متفاعلة مع نظراتي تمزحُ بحركاتها وإيماءات ملامحها برقّة فابتسمتُ لتغيّر حالها. ابتسامتي في الحقيقة كانت مقابلة لوجه مارينا. عقدت حاجبيها بأنوثة متسائلة بضحكّة شدّت بها شفتيها قليلًا محرّكةً رأسها للطّرفين قليلًا لتشكّل بهذا الوجه الأنثويّ المتسائل السّاحر كأنّها تقول: "ماذا؟"

اا عذرا.. أنا ، اا.. آدم.. اسمي آدم.

كانت لطيفة باسمة ممازحة في كلامها ليزيدها ذلك فتنة وجمالًا وبدأت تتحدّث وأنا أغرق فيها كشخص وحيد

في المحيط ولا يجيد السّباحة، مرّ عليه قارب إنقاذ ولكنّهُ فضّل الغرق.. كنتُ أستطيعُ تجاوز ارتباكي هذا بأن أشاهد الأرض أو الكراسي المجاورة أو أعمدة الإنارة، لكنّني اكتفيتُ بالنّظر إليها وهي تتحدّث وتداعبُ بعض الأوراق بين يديها.. تحوّلت ملامحها إلى الجديّة وسرحتُ فيها أكثرَ من ذي قبل ناسيًا ما تقولهُ أصلًا

-... في الحقيقة، لا أظنّ بأنّ تسميتكم كمشرّدين أمر لائق وهذا ما رفضتُ أن يكون عنوانًا للبحث الّذي قُدّم لي.. لم أحب أن يكون هناك مصطلح تشرّد في حياتي.. عُمومًا، هل تقبلُ دعوتي لمنزلي المتواضع اللّيلة؟ سآتي لأقلّكَ من هذا المكان.. اوكاي؟

كان حديثها طويلًا جدًّا لم أتمكّن من التقاطه كاملًا لسرحاني في ملامحها المتحدّثة وتحرّكات شفتيها الورديّتين أثناء الحديث، كان لها القليل من النّمش وخدّين حمراوتين بغمّازة رائعة وشعرٍ بنيّ أقرب إلى الذّهبيّ الفاتح منسدل على كتفيها. هي طالبة جامعيّة تدرس اختصاص ما يهتمّ بالأوضاع الاجتماعيّة ووُجّهَ لها بحثٌ في ما يخصّ حياة المشرّدين..

أخبرتني بأنّ اختيارها قد وقع عليّ بعدما رأت حادثة العزف والغناء والرّقص داخل ساحة الحديقة وسباحتي في النّافورة وحديثي مع أحد المهووسات بفنّ الميتال حسب مظهرها وكذلك توزيعي لوجبات غداء بسيطة

على المشرّدين في الحديقة. وأثار ذلك إعجابها، طبعًا وافقتُ على عرضها، سيسرّني رؤيتها بصفة يوميّة بالإضافة إلى أنّ زياراتي لها ستضمنُ لي بعض الأكل والدّفئ ورُبّما المبيت أحيانًا. لكنّ هذه الجماليّات الّتي حدثت لن تحول دون ما يشدّني حول الظّرف وما فيه، وحول أصحاب الأقنعة الغامضين.

تُرى كيف لي أن أجدَ ظرفًا صغيرًا في شوارع ضخمة مثل هذه؟ أتيتُ إلى هُنا لأجل إيجادِ نفسي وإيجادِ روح الرّواية الّتي فقدتُها فيّ لا لأن يحصُل كُلّ هذا.. من تكون صاحبة الزّيّ الأسود الّتي التقيتها صبيحة اليوم؟ نظرتُ في جيبي لأحمل البطاقة الّتي أعطتني إيّاها لأتفقّدها، من أنتِ أيّتها الغامضة؟ كان اسمها كما هو مُدوّن "فيكتوريا كاثرين" إسبانيّة الجنسيّة. يوجد في البطاقة عنوان مكان الحفل ورقم هاتفها.. مُتشوّق لعرضِ العمل الّذي تحدّثت عنهُ أكثر من الحفل. ما هو يا تُرى؟

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة والنّصف مساءً. بقيَ ثلاثُ ساعات على موعد اللّقاء الّذي سيجمعني بـ...

"مارينا..." تقولُ الرّاهبة بصوتٍ منبهر وهي تجلسُ على الكرسيّ الّذي بمحاذاتي مادّة ذراعيها في الجوّ واصفة الاسم بانبهار وهي تكرّر فيه "مارينا".. نظرت إليّ وقالت! لم أعد الرّاهبة بعد الآن، من الآن فصاعدًا، اسمي هو: – نظرت

للأمام مرّة أخرى وقالت بصوت خافت مُتعجّب والبريق في عينيها السّوداوين – "مارينا"

لم يحن وقتُ اشتعال أعمدة الإنارة؟ لم تشتغل أصلًا، لماذا هذا العمود الّذي يقابلني يشتعل وينطفئ بهذه الصّورة الغريبة؟ بقيتُ مُوجّهًا ناظري إليهِ مُتأمّلًا نوره الّذي ينبعثُ ويختفي. أنزلتُ بصري لأجد في أحد الكراسي القريبة رجلًا ذو بدلة سوداء مُتّسخة بـ ...! تبًّا.. يلبسُ قناع ماعزٍ أبيض. ينظرُ إليّ مباشرة بدون أن يتحرّك أو يُحرّك وجهه ولم أستطع أن أفعل شيء، نفسيّتي صارت مُتبعة ممّا يحصل لي مؤخّرًا. تسارعت أنفاسي ودقّات قلبي الّذي صارَ ضعيفًا من كثرة الصّدمات.

ماذا سيحدثُ الآن؟ استسلمتُ للأمر الواقع. نظرتُ إلى السّماء وأغمضتُ عينيَّ مُستطردًا أحاولُ نسيانه أو تناسيَه مُرحّبًا بكلّ ما ستؤول إليه الأمور. أسمعُ صوت الكهرباء تتقطّع وتتآكل في عمود الإنارة أمامي بشكل أوضح وأغرب من ذي قبل.. أسمعُ صوت سكّين يُجزّ في الأرض، يُجهّزُ للذّبح، كنتُ في لحظة صفاء جعلتني أرفعُ رأسي إلى الأعلى تاركًا عُنقي واضحًا لعلّ الأمرَ ينتهي بسُرعة بدون أن أفتح عينيَّ.

لم يكن هناك صوت خشخشة ثياب أو آثار أقدام، لكنّ صوت تلاطم السّكين بالأرض كان قريبًا وواضحًا

جدًّا. نظرتُ على يميني لأجد بأنّ آرثر قد جاء على غفلة منّي، وصوتُ السّكين كان سكّينه. ولا زال صاحبُ القناع ينظرُ إليّ. تكلّم آرثر: "أُنظر إليه، أُنظر إليه بثقة. إنّهم جبناء يحاولون زرع الارتياب فيك فقط وهذه أساليب الحمقى.

أُنظر إليه بحدّة واجعلهُ هو من يرتاب.." فعلتُ ما أمرني به وولّد ذلك قليلًا من الثّقة في نفسي، أسمعهُ يحمل السّكين من الأرض قائلًا. "أتسمحُ لي".. "نعم، عليكَ به، لكن هؤلاء الجبناء لا يحتاجون سكّينًا لمجاراتهم"، رمى السّكين بعيدًا، فرقع أصابعهُ واتّجه نحوهُ، نهض صاحبُ القناع حاملًا سكّينًا وتشاجرَا بقسوة توالت فيها الضّربات حتّى سقطَا أرضًا وصارَا ينقلبان على بعضهما باللّكمات حتّى خارت قواهما وأغميَ على صاحب القناع. ضُرب آرثر بخدش سكّينٍ سطحيّ في رجله. فجلس أمام جسدِ ذاك الشّاة الضّعيفة على كرسيه الّذي كان يجلس عليه.. أغمضتُ عينيَّ وفتحتُهما مُجدّدًا على إثر ألم في فخذي من خدش سكّين ما.

كانت أنفاسي متسارعة جدًّا ومُرهق كثيرًا وكأنّني كنتُ أجري لتوّي أجلسُ في المكان الّذي جلس فيه آرثر بالقرب من جثّة صاحب القناع. في الحقيقة، أنا من نهض في الأوّل من مكاني وتوجّه نحوه لمقاتلته، كنتُ أحملُ روحَ وقسوة آرثر للحظات. لا أدري كيف حدث ذلك ولكنّني

أحسستُ بقوّة تدفعني إلى ضربهِ بشدّة فما هو إلّا بشرٌ ينزفُ مثلي، انحنيتُ عليه مُمسكًا بقناعهِ رافعًا إيّاهُ من على وجهِه ليظهر خلفهُ وجهُ شابّ في مُقتبل العمر مُشوّه الوجه بالكثير من الوشوم يضع الكثيرَ من الحلقات في مناطق مُختلفةٍ من وجهه ولطخة من الهالات السّوداء المصطنعة حول محيطِ مقلتي عينيه.

بدا لي شكلهُ مألوفًا بعض الشّيء.. قبل أن أبدأ في البحث داخل سترته وجيوبه عن شيء ما يقودني لكشف سرّ جماعته؛ يراني أحدُ أعوان الأمن في الحديقة فيجري نحوي لأفرَّ بعيدًا خارج الحديقة أجري برجليَ العرجاء حتّى وصلتُ للسّور، قفزتُ بسرعة للطّريق فتوقّفت سيّارة على بُعد ثوانٍ من دعسي سقطتُ أمامها بالكاد أصدّق أنّها لم ترتطم بي. نزلت منها شابّة مُؤنّقة بتنّورة سوداء قصيرة لتطئمنّ على حالي، بدت خائفة عليّ.. أو رُبّما خائفة وفقط. ماذا! كانت هي، نعم، إنّها.. إنّها مارينا. تنحني عليّ متسائلة عن سلامتي ظانّةً المسكينة بأنّ أثار الدّماء من خدش السّكين كانت بسبب الحادث. وضعت كفّها عليه لتسدّ مجرى سيلانه حتّى وإن لم يكن نزيفًا شديدًا إلّا أنّه غيّر لون سروال الجينز الأزرق الفاتح إلى الاحمرار الدّاكن. ساعدتني في النهوض، شدّدتُ على عدم ذهابنا إلى المستشفى بعدما أخبرتني بضرورة توجّهنا

إلى هناك لكنّها سرعان ما وافقت لعلمها بأنّني مُهاجر غيرُ شرعيٍّ ولثقتها بمقدورها في العلاجات الأوليّة.

وصلنا إلى منزلها، استعملنا المصعد وتوقّفنا في أحد الطّوابق أين تقيمُ هناك. دخلنا إلى منزلها وجلستُ على كرسي ريثما تحضر عُدّة العلاج.. شربتُ بعض المياه من فوهة القارورة لم أصبر حتّى تعود وأطلب منها كأسًا، رأتني وهي قادمة فاعتذرتُ وردّت باسمة: "لا عليك"، شعرَ كلانا بالحرج وتوقّفنا للحظة لم أنزع فيها سروالي رغم أنّني ألبسُ ملابس داخليّة أسفله. لكنّني فعلتُ في الأخير بمساعدتها لأنُّه انغمس في الجرح قليلًا. قامت بتعقيمه وخياطته وتضميده هو والخدش السّابق في ساعدي، كان نزعُ قميصي أشد قسوة لالتئام الجرح به. ممّا اضطرّنا لتمزيقه.

تابعت تمريضها لجسدي المتهالك بوضع ضمّادة أخرى على ناصيتي. كلُّ هذا وأنا أتأمّل ملامحها وعينيها وابتسامتها بين الفينة والأخرى، أتأمّلُ مشيتها وتحرّكات شعرها وخامة صوتها الجذّابة. كنتُ تائهًا في تفاصيلها الرّائعة نسيتُ للحظة بأنّني مُجرّد مُتشرّد عشرينيّ تعيس. وأنّ فعلها هذا ما هو إلّا شفقة وتعاطف لا غير. وأنّني هُنَا في بيتها لأجل بحثها الّذي ستُقدّمهُ في الجامعة فقط. ناولتني منشفة مُبلّلة ومُعقّمة بعد أن طلبتُ منها ذلك لأنظّف هذا الجسم

القذر لعدم مقدرتي على الاستحمام لكي لا تُفتح الجروح بعد خياطتها.

لم أكن أريدُ إطالة المكوث هُنا لما أنا عليه من جسدٍ يحتاجُ الرّعاية وما أنا عليه من مشاكل تلاحقني. شكرتُها على صنيعها وأردتُ أن ينتهي الأمر سريعًا.

- همم! أخبرتني أنّك تقومين ببحث ولديك بعض الأسئلة؟
- اا! نعم، بالفعل.. ألا تودُّ الخوض في ذلك؟
- لا، ليس هذا ما قصدتهُ.. كنتُ أريد القول، لما لا تبدئين الآن في ذلك؟

ضحكت وقالت:

- ماذا هل أنت مُتشوّق للأمر أم لا تُعجبك ضيافتي؟
- لا أدري لماذا الجميلات يكنَّ غبيّات بعض الشّيء! لا أريدُ أن يتعلّق بكُ شابٌّ بائس مثلي.
- في الحقيقة، لا أريد أن أكون عبئًا عليك! أرجوكِ لا ترفضي، لنبدأ الآن...

لاحظت انزعاجي، فلم تشأ أن تبدوَ مُلحّة لأن أقضيَ اللّيلة في منزلها. حملتْ قلمًا وبعض الأوراق من حقيبتها جانبًا وقالت: "لنبدأ أوّلا بـ.. آآ.. ما هي قصّتك ؟" كنتُ أبحث عن هذا السّؤال بالضّبط، كنتُ أريد أن أحكي قصّتي،

كنتُ أريدُ التخلّص من هذا الحمل الثّقيل على عاتقي، فما عشته أكبرُ من أن يُخبَّأَ ولا يُحكى.. حياتي التّعيسة لوحدها رواية.

حكيتُ لها منذُ اللّحظة الّتي تركتني فيها والدتي عند جدّتي واختفت بعد وفاة والدي مباشرة، حكيت لها عن حياتي عند جدّتي، عن دراستي، عن مهنتي كنادل في أحد المطاعم، عن كوني كاتبًا ذيع لهُ بعض الصّيت في بلاده وترجمت بعضُ أعماله، حكيت لها عن قصص الهجرة الكثيرة الّتي بطلُت باستثناء هذه الأخيرة الّتي أتت بي إلى هنا. حكيتُ تفاصيل أيّامي هنا، كمُشرّد، عن المبيت في الشّوارع الضّيّقة والاقتيات من حاويات القمامة أحيانًا، حكيتُ عن تجوالي اليوميّ فاقدًا ذلك الشّعور بالذّهاب إلى مأوى أرتاحُ به في المساء.. من السّيء جدًّا ألّا تُفكّر في مكان وفراش دافئين بعد يومٍ متعب وبارد.

كنتُ أعيشُ ذلك الشّعور يوميًّا. أفرغتُ كلّ شحناتي السّالبة بالحديث عمّا عشتهُ وعايشتهُ من أمور أثّرت فيّ.. حكيت قصّتي مع أصحاب أقنعة الماعز البيضاء والأمور الغريبة الّتي بدأت تحدثُ لي معهم منذُ يومِ المقبرة وبعد خروجي من المستشفى. حكيت عن بعض التّفاصيل الجميلة مثل اللّحظة الّتي بتّ فيها في أحد الممرّات، ووجدتُ بالقرب منّي كلبًا اشتركتُ معه في الجوع والأسى والتّشرّد.. ضحكتُ

عند تذكّري اشتراكنا في العواء أيضًا. كنتُ أودّ التّحفّظ عن الأمر لغرابته ولكنّني وصفتُ تلك اللّحظة بعدما وصفتُ ليلتها بالتّفصيل.

... أتدرين! اقترب منّي ذلك الكلب الظالّ وغطّيتهُ بمعطفي من البرد، لن تصدّقي ما حدث بعدها..

قاطعتني بردّ غريب، بملامح مُتعجّبة غير مُصدّقة. قالت بهدوء:

"اووو!"

كنتُ غارقًا في الوصف والحديث أتأمّل الأثاث والجدران والأرض أرى فيهم تصوّرات لما يجيئُ به فمي من حديث عن القصص الّتي أسردها. وقبل أن نقول "واشتركنا في العواء أيضًا ..." نطقت بردّها هذا، توقّفتُ مُنصدمًا، ولكن كيف؟ شدّت على يدي لأنهضَ سريعًا ناسيةً أمر الأعطاب الّتي فيّ وقادتني مهرولة أمامي إلى الشّرفة وأنا أتعجّبُ ممّا يحصل، دخلنا إلى شرفتها الجميلة والمُزيّنة بأكاليل من الورود الزّهيّة وبعض أقفاص العصافير ولوحة رسم بالقرب من معدّات الطّلاء من الفرشاة والألوان.

كانت شرفة رائعة، لكن لم يكن هذا مُهمًّا.. دفعتني مازحة لأن ألقيَ نظرةً للأسفل. كانَ الشّارعُ حاليًا طبيعيًّا لا شيء فيه يلفت الانتباه مثله مثل عشرات الممرّات الضيّقة الشّبيهة.

نظرت في طرفيه ثُمّ استدرتُ لها متسائلًا بملامحي وقبل أن تنطق، أو أفعل.. تغيّرت ملامحي المسائلة واتّسعت حدقتايَ المتعجّبتان فأومأت برأسها كأنّها تقولُ: "نعم"، أعدتُ إلقاء نظرة سريعة من الشّرفة نحو الشّارع، برقت في عينيَّ قليلٌ من شظايا الزّجاج في الأسفل، نعم، إنّهُ هو، إنّهُ...

إنّها.. إنّها هي! أعدتُ النّظر إليها وقلت متعجّبًا بملامح منبهرة بين السّعادة والصّدمة، بين الضّحكة واتّساع عينيَّ غير مُصدّق لهذه الصّدفة الغريبة الّتي حدثت الآن.

أنت؟

اغرورقت عيناها فصارتا كمرج ربيعيّ نديّ ساحرٍ وزادت فتنة اخضرارهما، تقدّمتُ منها فهمّت بمعانقتي. لا، ليسَ حُبًّا منها لي، من الغباء أن تُحبّني من أوّل عواء.. لشيء آخرَ خفيّ في روحها وكيانها عليّ معرفتهُ ولازلتُ غير مُصدّق أنّ الأقدار شاءت أن تنسج هذه الحكاية.

هربت ضحكة سعيدة من ثغري، مسحتُ مقلتيها من الدّموع وشددتُ على كتفيها بكلتا يديَّ وخرجتُ مُسرعًا بخطوات عرجاء إلى الشُّرفة مُستنشقًا نسائم الهواء آخذًا شهيقًا عميقًا أنظرُ للبدر في السّماء.. خاطبتُ بحماس طيف ذاك الكلب الّذي كنتُ معهُ تلك اللّيلة هنا، أتخيّلهُ في الأسفل: "أترى يا صديقي! ها نحنُ نشتركُ في رجلٍ عرجاء أيضًا" ثُمّ شكّلتُ بكفّاي قوسين على فمي وأطلقتُ من ذلك التّجويف

عواءً هزّ حنجرتي لدرجة أنّ حماماتٍ كانت على حافّة القرميد في الأعلى قد طّارت وصرخ مُشرّد سكّير في الأسفل كان يحضّر للنّوم ارتعب من الصّوت: "صان اوف بيتش"، وعادت قارورتهُ الّتي رماها عليّ ولم تصل إلّا مترًا إلى الأعلى لتتحطّم بالقُرب منه.

إنّه ذاك السّكير المتجوّل الّذي نمتُ بالقرب منه ليلة أمس اختار المبيت في هذا الشّارع لهذه اللّيلة. فجأة يخرج من نافذة الشّرفة كهلٌ مُزعجٌ صارخًا في وجهي.. اه! إنّه ذلك الأحمقُ الّذي سكب علينا الماء غير آبهٍ لبرودة الجوّ في تلك اللّيلة. عرفتُ الآن لماذا كان يصرخُ مُوجّهًا لعناته لنافذة بالقرب منه.. توقّف بعد أن رآني هذه المرّة، توقّفت فجأة بعد أن تعرّف عليّ وقال بإحباط:

هاا إذًا لمٌّ شملٍ بينكما أم حفلة ذئاب أم ماذا؟

لم أعرهُ بالًا لكنّها خرجت لتردّ عليه، ظهرت فجأة في إطار النّافذة واضعةً يدًا على كتفي والأخرى تشيرُ بها إليهِ بإصبعها الوسطى ضاحكةً

إنّنا نكرّمك بلغتك يا جارنا العزيز.

ثُمّ دخلنا وعدنا لغرفة الجلوس متقابلين في الأريكة لم يتحدّث أحدٌ منّا، فبادرتُ بالسّؤال.. حملتُ قلمًا وبعض الأوراق بالقُرب منّي مازحًا وقلت:

إذًا، ليس لدينا الوقتُ أيّتها المتشرّدة، ما هي قصّتك؟

لا تنعتني بالمتشرّدة أيّها الأحمق، نحن المشرّدون...

قاطعتها بعدما جلستُ مُستعدًّا لأن أشاهد عينيها بالدّرجة الأولى وبدرجة ثانية لأن أتعرّف عليها أكثر، قلت..

لا، لا أعني هذا.. أقصدُ قصّتكِ الحقيقيّة!

كانت هولنديّة الأصل، من آمستردام تحديدًا.. جاءت إلى أمريكا كي تُتمّ دراستها ثُمّ تعودُ لبلدها الأم. كانت من نفس سنّي، خمسة وعشرون سنة؛ أو بالأحرى تكبُرُني بما يُقاربُ الأحد عشرَ شهرًا.. تُمارس هواية الرّسم على غرار تخصّصها في الحقوق الاجتماعيّة. تقطنُ في هذا النّزل لوحدها تعيشُ بهِ وحيدة في الغالب إلّا إن أتت لزيارتها بعضُ صديقات الجامعة أو إن أقامت حفلة فيه. كانت تتحدّث عن تفاصيل حياتها وأنا أشعرُ بالضّياع لا أعرفُ أعليّ التّركيز في هذه المعلومات أم في تفاصيلها الحقيقيّة. لديها عفويّة تخدّرك أثناء الاستماع لهذا ومشاهدة انفعالات ملامحها.. أيّ سجيّة ساحرة هذه. حدّثتني عن تلك اللّيلة!

كنتُ في آخر الرّتوشات من لوحة أستغلّ لحظات الخلوة والتأمّل الّتي أقضيها في الرّسم في أن أقرّر وأجدّد قراراتي وأبني نفسي من جديد. لاحظتُ ولوجك إلى المرّر أسفل الشّرفة فتابعتكَ مُستغربة حالة الخوف الّتي كُنت عليها، كنتَ تنظرُ خلفكَ أكثر من مرّة جاثيًّا في الأرض مُرهقًا ثُمّ استندت على الجدار لترتاح. تركتُ اللّوحة وركّزتُ معك.

غالبًا ما يكونُ المشرّدين شيوخًا أو مجانين. كُنت استثناء، لأوّل مرّة أصادفُ عشرينيًّا مُشرّدًا.. طريقتك في التّعامل مع الكلب وتحدّثك معه، إعطاء معطفك لهُ، لحظة انسجامك مع المطر وتناغمك مع الطّبيعة، ضحكتك وفرحك أثناء الاستماع لبعض الكلاب الظّالّة في الأحياء المجاورة وتأمّلك لهذا المبنى أينَ نبح كلبٌ آخر فيه بعواء آخر. تمنّيتُ للحظة لو أنّني مكانك أو معكَ بالأسفل.

حسدتكَ لعيشتك الرّوحانيّة البهيّة بالرّغم من قسوتها، كنت أريدُ الحديث معك لساعات والتّجوّل معك لليالٍ. ها قد أتت بكَ الصُّدفة إليّ، في منزلي. أعجبتُ بكَ حقًّا تلك اللّيلة. والتقطتُ لك بعض الصّور احتفظتُ بها، انتظر لحظة...

حملت هاتفها، فركت شاشتهُ للحظة ثُمّ بدأت تُريني بعضَ الصّور، أثناء نزول المطر وانتشاء به، وأثناء افتراقي مع الكلب وترك معطفي وأخريات غيرها.. قلتُ:

أتُعجبين بمُشرّد تعيس كحالي؟ كم أنتِ غريبة.

قالت بعدما زاد احمرارُ خدّيها خجلًا فاتنًا..

بل شابّ وسيم، وسيم ومُغامر وحياتهُ مليئة بالشّغف وهذه نوعيّة الحياة الّتي كنتُ أحلمُ بها في صغري، أدري بأنّ الأمر غريب قليلًا، لكنّها الحقيقة.

قبل أن يكتمل انحناء الابتسامة انتفضتُ في مكاني سائلًا إيّاها بملامح غريبة عن الأولى، رُسم فيها الكثير من القلق..

هل انتهت الحكاية لتلك اللّيلة؟ ألم تنسي جزءًا منها بعد ذلك! بعد افتراقي أنا والكلب؟

مهمهت للحظات رافعة حاجبًا عن الآخر مُفكّرة وجالت بعينيها بعيدًا عنّي قليلًا ثُمّ قالت..

-اه تذكّرت! حادثة جارنا المتعجرف، دلو الماء، شظايا الزّجاج.. بعدما سمعتهُ يُهدّدك بالنّزول إليكَ، وقد فعل. نزلتُ أيضًا علّني أُهدأ من روعه ولحسن الحظّ أنّكما لم تتصادفَا وإلّا لكنتما في حالة يُرثى لها الآن. بحث عنكَ في الجوار قليلًا ثُمّ عاد لجحره يلعنُ الجوّ حتّى اختفى. بقيتُ للحظات بعدهُ لألمحَ الكلب، داعبتهُ قليلًا ثُمّ أنزلتُ لهُ بعضَ الماء والأكل وتركتهُ يذهب.

-ألم تُلاحظي شيئًا غريبًا، ظرفٌ ما داخل المعطف أو رُبّما أسقطهُ بالجوار...؟

-المعطف؟ سقطُ منه بعد أن حاولَ قطع الطّريق بسرعة، فعلّقتُه في أحد الأشجار في الرّصيف لعلّ مُشرّدًا ما يراهُ فيلبسهُ في هذا الجوّ القاسي.

-شجرة؟ أيّ شجرة؟ أيُمكننا الذّهاب إليها؟ أهي قريبة من هُنا؟

احتارتْ قليلًا من توتّري وأسئلتي المبعثرة ووصفت لي الطّريق ومكان الشّجرة، لبستُ سروالي المهترئ وحملتُ قميصي لأراه قد صارَ كمنشفة عفنة، مُتّسخ ومُمزّق من كُلّ جهة. أطلتُ النّظر إليه وكنتُ سألبسُ معطفايَ بدونه إلّا أنّها نزعتهما من يدي وقالت:

– غالبًا ما تبقى معاطف المشرّدين مُعلّقة في الأشجار لمدّة طويلة لأنّ الفُقراء صاروا يختارون المعاطف الّتي يترُكها الأغنياء فقط. آسفة، لا أقصدُ الإهانة.

– لكنّك فعلتِ بطريقة ما..

قلتُ ذلك بضحكة تدلّ على المزاح فخرجتْ مُسرعة وبعد دقيقة تذكّرتُ بأنّها لم تكن تلبسُ إلّا تنّورتها القصيرة والسّماء قد بدأت تُمطر قبل قليل، دخلتُ الشّرفة حاملًا معطفًا لها كان مُعلّقًا بالقرب من الباب وبعدما لمحتها في الأسفل ناديتها صارخًا:

هااي! أيّتها المشرّدة؟

نظرت إليّ رافعة رأسها، وياداها تحاولان تفاديَ المطر الّذي أعاق عليها الرّؤية وضحكت

تفضّلي هذا المعطف، إنّهُ منّا نحنُ الأغنياء أيّتها الفقيرة السّافلة

التقطتهُ وترانيمُ الضّحك لا تفارق فمها الّذي صار كأنّهُ يصدر نوتات موسيقيّة ستصبحُ من أغانيَّ المفضّلة. لبستهُ

ونظرت إليّ والمطر يسقيها كأنّها أحدُ ورودِ الجنّة ينسابُ مع شعرها المبلّل وباقي جسمها المنحوت كأّنها أحدُ دميات عالمِ دزني. دارتْ على نفسها في مكانها راقصة مع المطر ثمّ أعادت النّظر إلى الشّرفة أين كنت واقفَا وأطلقت عواءً تحت دويّ الرّعد وهطل المطر الّذي صارَ ينزلُ من عنقها الموجّه إلى الأعلى، مسحت عينيها من المطر لتتمكّن من الرّؤية بوضوح وقالت:

حياتنا نحنُ المشرّدين رائعة أيّها الغنيّ اللّعين.

لم أتفوّه بكلمة بقيتُ أشاهدُ أنوثتها وتصرّفاتها الطّفوليّة اللّذيذة إلى أن استدارت ثُمّ توجّهت نحو الشّارع الرئّيسيّ وصرتُ وحيدًا في شقّتها الهادئة. من منزل جدّتي في مدينتي البائسة إلى شقّة هولنديّة مثيرة في أحد أكبر مدن أمريكا.. ما الّذي تودّ قوله أيّها القدر؟ كان المكانُ فوضويًّا بعض الشّيء، وكنوعٍ من حُسنِ الإقامة قمتُ بترتيبه قليلًا ريثما تعود.

لفتت انتباهي بعض الصّور، هي نفسها الّتي أخبرتني بأنّها التقطتها لي، تفحّصتها باستلطاف لتصنيعها هذا واحتفظتُ بها للذّكرى، فإقامتي هنا قد لا تتعدّى اللّيلة أو رُبّما ليلة أخرى.. ولم أكتفِ بأخذِ صوري، لا تظنّوا بأنّني سارق ولكنّني احتفظتُ أيضًا ببعضِ صورها الجميلة لسبب

ما، لن أستأذن منها ذلك طبعًا، فمن الغريب أن يطلب منك مُشرّد ما صورك ليحتفظ بها.

عدتُ للأريكة الّتي في البهوِ كالموميا‌ء مُغلّف بالضّمّادات في عدّة مناطق من جسمي. واسترخيتُ مُتأمّلًا اللّحظة، كنتُ أسفل هذه البناية العالية في البرد والخوف، وها أنا الآن أحظى بنعيمِ الدّفئ والهدوء للحظة على أريكة مُريحة في نفسِ المنزل الّذي صدر منهُ العواء الأنثويّ في تلك اللّيلة، وكأنّني دخلتُ عجلة زمنيّة غامضة. لكنّني أحببتُها، أغمضتُ عينيَّ لبُرهة، لكنّ البرهة امتدّت لدقائق، حتّى غطيت في نومٍ لم يكن في الحسبان، لكنهُ قد حصل.

لا أدري كم مرّ من الوقت، لكنّ الظّاهر من زجاج فُتحة الشّباك يدّل على أنّ السّاعة قد تجاوزت مُنتصف اللّيل حتمًا. وجدتُ رجليَّ فوق مقعدٍ مُكعّبٍ منخفضٍ، قماشيٍّ مليئ بالصّوف، على الأغلب هي من وضعتهُ تحت قدميَّ لأستلقيَ براحةٍ أثناء النّوم.

من عادتي أن أستيقظَ فجأة على رصيفٍ ما، أو شارع ضيّق ما، أو أيّ مكان ما خارجًا. لا أن أفعل في بيت دافئ هكذا، نظرتُ للسّاعة فوجدتُ عقربها يكادُ يُقبّل الواحدة ليلًا. كحّة سُعال منّي تحرّك بعدها باب الشّرفة قليلًا لتُطلّ منهُ "مارينا" بزيّ أبيضٍ مُلطّخ بالكثير من الألوان العشوائيّة. قالت باسمة – كعادة شفاهها أثناء الحديث – بمزاح:

ها قد أستيقظ الأمير النّائم.

وقفتُ على عدّة مراحل من الألم لأستقيم، فاقتربتْ لتشدّ على كفّي لكي تساعدني على السّير، وعاكسَ سيرَها محاولتي للاتّجاه نحو الشّرفة لأتطلّع على لوحاتها. استغربتُ في أوّل خطوة لكنّ قادم الخطوات قادتني بها إلى المطبخ، سحبتْ أحد الكراسي إلى الخلف قليلًا وأشارتْ إليّ بالجلوس، فشكرتها بابتسامة مُمتنّة. واتّجهت صوبَ حاجيات المطبخ تُحضّر شيئًا ما. ولم يُمرّ الوقتُ صمتًا، فسألتُها!

– لكن..! لم تسأليني عن سرّ فراري من الحديقة والقفز من سورها بذلك الشّكل وعن سرّ الخدش والدّماء؟

– وأنت لم تسألني عن سبب سرعتي في مغادرة المكان!

لم أفهم ما تقصده فأكملت حديثها تشرحُ الأمر.

– قبل أن أصل إليك، كنتُ قد شهدتُ تلك الجلبة الّتي حدثت من خلف السّور، في الطّريق الآخر، أثناء قدومي إليك، أعرفُ كمَّ المضايقات الّتي تتعرّضون إليها، لهذا توجّهت مُسرعة إلى الطّريق الآخر أين توجد البوابة لكنّك قفزت من السّور كالأبله فكدتُ أقضي عليكَ أنا بدلًا من أولئك الصّعاليك.

ضحكتُ وعرفتُ الآن لماذا لم تستغرب الحادثة وتصرّفت كأنّها موقنة بالفعل.. بدأت رائحة الطّهو الشهيّة

تخترقُ منخاري أنفي فزادَ جوعي وكنت أنتظر بفارغ الصّبر أن ألتهم ما كانت تعدّه لنا بشراهة، لاحظت مرينا أنّني لم أعد أطيق صبرًا ففكّرت أن تقدّم لي بعض المقبّلات – ريثما يحضر الطّبق الرئيسيّ – والمتمثّلة في الأطباق الّتي تؤكل باردة وهي مكوّنة أساسًا من الخضار والفواكه المقطّعة إلى شرائح أو المفرومة فإمّا تترك نيّئة وإمّا تكون مطبوخة وإمّا مخلّلة، إلى جانب بعض المربّيات والصلصات والأجبان، وفور ما وضعت تلك الأطباق فوق مائدة الطّعام هممتُ أحشي فمي حشوًا من كلّ طبق، لا أنتهي من المضغ حتّى أضيف لقمة ثانية، لم أكن أتصوّر أنهُ سيأتي عليّ يوم قريب أجلسُ فيه في مطبخ بهيّ أضع اللّقمة بعد الأخرى كسيّد بورجوازيّ شره. لم أكن أركّز إلّا على صوت المضغ ورائحة الطّعام، فلاحظتُ أنّها قد نطقت بشيء ما لم أستطع التقاطهُ.

توقّفتُ للحظة مُكوّم الفم فقد كانت دبلة من الطّعام داخله، وعينايَ تحدّقان فيها باتّساع مُستغرب كأنّهما تقولان: "ماذا قلتِ؟" ولحسن الحظّ أنّها فهمت ذلك، لأنّني لو نطقتُ حرفًا لتوقّف مضغة ما وسط حلقي، توقّفت عن الأكل كالحيوانات وعدتُ لبشريّتي أستمعُ إليها.

-لم تحدّثني كثيرًا عن تلك الغريبة الّتي جاءت إليك في الحديقة ليلة أمس، من تكون؟

- تقصدين كاثرين؟

– من! هناك المئات بهذا الاسم في أمريكا..

– أي نعم، كان هذا اسمها، كانت لطيفة جدًّا ومُختلفة. بالرُّغم من أنّ الجميع كان يراها وحشًا.

– ماذا أرادت منك؟

– لا أدري، جاءت لتواسيني أو لتخفّف عنّي وحدتي رُبّما، ثُمّ أعطتني دعوة لحضور حفل غنائيّ وفرصة عمل طالما رغبتُ بها. رُبّما فعلت ذلك لاشتراكنا في الغرابة أو..

– فيكتوريا كاثرين؟

نطقتْ باسمها الكامل فجأةً مقاطعةً حديثي!

كنت شاردًا في غرابة وصفها للعنوان وملامح كاثرين بدقّة، لم يكن هذا الملفتَ في الأمر أكثر من كون ملامحها قد تغيّرت للحيرة والخوف، جعلني ذلك مُرتبكًا وزدتُ ارتباكًا عندما أمسكتْ يداي بكلتا يديها مُحاولةً منعي من الذّهاب، لم أعرف هل أرتبكُ لكونها ممسكة بيديّ بحُبّ الآن، أم من وصفها لهم بالغموض وطقوس حفلهم الغريبة، فحتّى مكانُ العنوان هذا يعودُ لنزل مُشتبهٍ بهِ جدًّا على حدّ قولها إضافة إلى مداهمة الشّرطة لهُ لعشرات المرات، ولا أحد يعلمُ لماذا إلى حدّ الآن، لا بُدّ وأنّ قضيّتهُ حسّاسة ومُخيفة جدًّا.

لم تتوقّف عن الحديث عنهم بهذه النّبرة المرتابة. وكأنّ سؤالي عن كيفيّة معرفتها لها قد توارد على عقلها قبل أن طرحهُ فأجابت عنه!

– كاثرين ! هي طالبة تدرسُ في أحد الكُليّات المجاورة لكلّيتي في الجامعة وطالما كانت محطّ أنظارِ الجميع، هي وجماعتها وحفلاتهم الّتي يصفها من يذهب إليها بالغريبة جدًّا، كثيرون هم من أصابتهم صدمة ممّا عايشوا من غرابةٍ هناك. يلبسون نفس اللّباس، نفس الوشوم، ويتّبعونَ نفس المنهج الغريب.

لاحظتُ بأنّ حديثها لا يبُثّ فيّ خوفًا بقدرِ ما بثّ فيّ إعجابًا، ولا يغرسُ فيّ تردُّدًا بقدر ما توسّعت جذورُ الشّوق فيّ للخوض في هذا العالم الغامض لأكتشف أسراره، ظهر من خلفها أطيافُ روايتي، يقفزون بهدوء لا يودّون إحداث ضجّة ويُعانقون بعضهم بعضًا بشغف كبير، يُشير كلوي بسبّابته يمينًا وشمالًا بسرعة فرحًا مُشكّلًا علامة "لا"، لا تستمع إليها، يدهُ الأخرى كانت تحيط بعنق شخصيّة الرّاهبة، أو مارينا الرّوائية، دنت برأسها نحو الأسفل قليلا بنظرة تحدّ وقوّة كأنّها تقولُ نعم، سنعيش ذلك. بسطت إيّما كفّيها في الاتّجاهين ورفعت كتفيها إلى الأعلى قليلًا ورصّت على شفتيها موحيَة بمزاح أنّ رأيهم قد تغلّب عليّ، ابتسمتُ فضربَ

كلوي الجوّ بقبضةِ يدهِ مُتشوّقًا للأمر بعد فهمهم لإجابة الابتسامة هذه، وكنتُ أكثر منهم شوقًا لذلك.

كانت رؤيتي ضبابيّة من شدّة سرحاني فتلاشى ذلك الضّبابُ بكفّ يُلوّح أمام عينيَّ وظهرت ملامحُ مارينا السّاحرة أمامي والحيرة بادية على وجهها من غرابتي. نفضتُ رأسي في الجوّ لأعود للواقع مُستطردًا الخيال الّذي حضر. وقلتُ لها، وأنا الممسكُ بكلتا يديها بين يداي هذه المرّة:

- لا تقلقي، لن يحدث شيء.. أعدك!

كانت ملامحها أقرب إلى الحُزن فهمّت بمُعانقتي ولم يدم طيبُ العناق لبرهة حتّى تذكّرتْ بأنّني مُجرّد مومياء مُحنّط من شدّة الأعطاب والكدمات. فابتعدتْ قليلًا مُتأسّفةً وضحكنا لسخافتنا العفويّة هذه وكسرَ بخارٌ أسودٌ برائحةِ احتراقٍ نقاشنا هذا، كان بخار احتراق العشاء الّذي كانت تطهوه لنا، سارعتْ فجأةً لإطفاء الفرن وهي تصبّ اللّعنات على المطبخ والجوّ والبخار ثُمّ توقّفت ونظرت إليّ:

-أظنّ أنّ اثنين بالجوار لن يتعشيا اللّيلة.

وضحكتْ بعفوية فاتنة وراحت تداعب شاشة هاتفها لتُكلّم أحد مطاعم التّوصيل حسب ما سمعت من حديثها.

-أظنّ أن الاثنين بالجوار قد وجدَا حلًّا.

-تقصدُ واحدة من الاثنن قد وجدت حلًّا.

-الأهمّ أنّ الثّاني سيأكل بيتزا اليوم.

لم يكن حديثنا الطّريف هذا يخلو من الضّحك والمتعة، كنتُ مُستمتعًا جدًّا برفقتها الطّيبة. جلستْ أمامي على أحد كراسي الطّاولة وقالت:

-لا أظنّ بأنك بسيط لهذه الدّرجة، ما الّذي تخفيه؟

-ليس لديّ ما أخفيه، فأنا مُجرّد كاتب بسيط، ومُشرّد ضائع، و.. لحظة،..! كاتب؟

-يُقال كاتب، لديّ بعضُ المؤلّفات ولا أظنّ بأنّني أرقى لمصطلح الكاتب، لهذا أنا في أمريكا..

-كيف؟ وما شأن أمريكا، هل ستكتبُ رواية عنها؟

-لا، أنا أبحثُ عنّي بالهجرة والسّفر، ألملمُ شتاتي بالاكتشاف. طالما كنتُ أظنّ ذلك وها أنا أحقّق الأمر.

تغيّرت ملامحها الجميلة ونظرتها من البرود إلى الفرح، لشيء غريب قد حلّ عليها ليجعلها سعيدةً مُبتهجةً.

-رائع، لا يمكنك تخيّل كم سعدت لسماع ذلك، رائع أمرك حقًّا، كاتب هاجر لأجل البحث عن الإلهام، يا لهُ من أمر مثير.

-هل سيُساعدك ذلك في بحثك؟

-لا أيّها الأحمق، أعجبني الأمرُ وفقط، أحبّ الرّوحانيّين مثلك. أعدك بأنّني سأكونُ أوّل من تشتري نسخة لك إن نشرت روايةً هذا العام!

جعلني حديثها سعيدًا حقًّا، لم أفكر يومًا بأنّه يوجد شخص – خاصّة وإن كان غريبًا – سيسعد لأجلي مثلما فعلت. وأنا مُجرّد كاتب مُهاجر مُشرّد يجوبُ الطّرقات بحثًا عن لقمة عيش.

كانت ستكمل حديثها المنبهر هذا فقاطعها جرسُ الباب فجأةً، أظنُّ بأنّ العشاء قد حضر. ذهبت لترى من هناك، فكانت الطلبية قد وصلت حقًّا، أتت بها إلى طاولة المطبخ وأثناء تناولنا سحبتْ ألبومَ صورٍ كان على حافّة الطّاولة، فتحتهُ وسحبتهُ إليّ وقالت بمزاح وثقة لطيفة.

-لستُ رسّامة فقط، ومصوّرة أيضًا.

بدأتُ في تقليب الصّفحات بإعجاب ولفت إنتباهي شيء ما!

-أتصوّرين الحيوانات والحشرات فقط؟

-امم، نعم، نوعا ما. أحب تصوير الطبيعة ككلّ.

أعجبتني رؤيتها لما تلتقطهُ من زوايا غريبة. كنتُ أقلّب صفحات الصّور وتحدّثني عن كلّ واحدة.

-صورة موكب مبعثر من النّمل! ما قصّتها؟

-أحسُّ بأنهم يحتفلون، فنادرًا ما تجدُ النّملَ عشوائيًّا..

-ماذا عن هذه؟ ما قصّة الصّرصار؟

-أشعرُ بأنّهُ فنّان منبوذ، التقطتُ له هذه الصّورة وهو يغني والنّمل لا يتكرث به، لهذا أردت تكريمه.

-ههه، يالك من غريبة. وهذه؟

-شبكة العنكبوت؟ كنت في نفسيّة منغلقة، رأيتها كأنها احتجاز. بالإضافة إلى أنّني أشبهُ العناكب، أنا عنكبوت بشريّ ربّما ههه...كنتُ أودّ سؤالها عن جميع الصّور، لكنّها نزعت الألبوم من بين يديَّ وقالت: "سأعطيكَ إيّاه هديّة إن أكملت وجبتك كاملة". ابتسمتُ لروحها البريئة وتحدّثنا عن عدّة مواضيع أخرى أثناء الأكل، عن دراستها وحياتها، عمّا تحب، وتكره، خضتُ في تفاصيلها كثيرًا والجميل أنّها لم تكن منزعجة من ذلك، بل تجيب بكلّ ودّ وتحكي قصصًا إضافية أخرى طريفة قد حصلت معها وتضحكُ لذلك، وتأسرني ككلّ مرّة بضحكتها وعفويّتها الجميلة.

-ليس من الجيّد أن يُحبّك مُشرّد مهاجر، توقّفي عن الضحّك.

تلعثمت في ما كانت تحكيه لي وتبعثرت أفكارها، واحمرّ وجهها خجلًا. ثُمّ ابتسمت وقالت:

-لا أمانع.

تبادلنا الصّمت والنّظرات للحظة، لكنّني أشفقتُ عليها منّي ولم أرد الحديث عن ذلك، رغم أنّني أعجبتُ بها حقًّا، ومع ذلك سأبقى مُتحفّظًا، انتهت الأمسية، وقضينا

سهرة جميلة تسامرنا فيها بمتعة رائعة، تبادلنا المزاح والحكايا، ولعبنا أيضًا بسخافة. لم أرد توديعها صباحًا. لهذا سأعودُ لحياة اللّيالي، من اللّيلة. كتبتُ لها رسالة وداع. وخرجتُ بهدوء. طبعتُ قُبلة على خدّها وتحسّستُ ملامحها بكفّي قليلًا، ثُمّ خرجت.

إلى عزيزتي مارينا

سأسعدُ بمُرافقة اسمكِ لي، كأحد شخوصِ روايتي، وسأحبّ شخصيّة مارينا في الرّواية كثيرًا، كما جعلتني أحبّك في الواقع، بهذه السّرعة والصُّدف الجميلة. لن أكذب عليكِ في كوني مُرتاب قليلًا في قضيّة الحفل، أقصد دعوة كاثرين، لكنّني عبثيّ مُغامر ولا أظنّ بأنّني سأخلفُ الموعد، لهذا إن حدث لي مكروه ما، أتمنّى أن تكوني بخير، وأن تبقي عفوية رائعة كما أنت، فسجيّتك فاتنة حقًّا. ولا تنسي وعدك لي، أن تكوني أوّل من يشتري نسخة من روايتي، أتمنّى أن نلتقيَ في معرض الكتاب القادم، أو رُبّما قبلها. أمّا الآن، فلن أكلّفك تعبي وحياتي السّخيفة. أتمنّى لك التّوفيق في بحثك وأرجو أن أكون قد أفدتك بجميع المعلومات الّتي تودينها. وقد أكون حاضرًا أثناء إلقائك له، وإن لم أفعل، ستكون روحي حاضرة هناك. لقد أخذتُ ألبوم الصّور، سأجعلهُ قريبًا منّي دائمًا، أكملي وجباتك أيّتها الصّغيرة لأعود إليك بهديّة أيضًا.

إلى اللقاء، أحبّك.

الفصل الرابع:
حفلة ماجنة

"... "هل أنت مُتأكّد؟" نزلتُ بحاجبيّ إلى الأسفل قليلًا مغمضًا عينيَّ وقلتُ بذلك دون أن أتكلّم: "نعم"، ابتعدتْ عنّي قليلًا وذهبت وسط الحشود لبُرهة. كان الجميع يمارس الجنس علانية، يمارسون كلّ أنواع الانحراف من شذوذ واختلاط وغيرها بشكل مقزّز حقًّا.

كنت مُنصدمًا لما تراهُ عينايَ الآن وكأنّ الشّيطان قد حضر لتوّه لكي يتمّ تمجيدهُ بهذا الشّكل. عادت كاثرين إليّ ومدّت كفّها نحوي لأن أذهب معها، وقالت بحركات ونبرة أنثويّة:

هيا بنا إلى غرفتك الآن ..."

نظرة في البطاقة، وأخريات في المبنى، أتفحّصُ ما إن كان هذا هو العنوانُ الّذي تمّت دعوتي إليه. يبدو بسيطًا وعاديًّا من الخارج، ليس كما وصفتهُ لي مارينا. رُبّما كانت تُحبّني ولم ترغب في أن أبتعد عنها فقط، لا، تفاهة، لا أظنّ ذلك، رُبّما كانت مُصرّة على عدم ذهابي لأجل بحثها ووقتها الضّيّق. لكنّني أظنّها طيّبة وعفويّة ليست أنانيّة بهذه الطّريقة.

لا يهمّ، المهمّ الآن هو أنّني أمام فرصة عظيمة لأن يُنشر كتابي، ولأن أحضر حفلة تُوفّر عليّ بحثًا عن قوت

اللّيلة. على غرار أنّ فراغ الأيّام مؤخرًا ستنعشهُ حفلة كهذه رُبّما، ورُبّما ستكون فرصة لاستحضار الإلهام الّذي سافرتُ لأجله وتحملت مشاق السّفر وتعبه. أغمضَ شخصٌ ما خلفي عينيَّ فجأةً، أتكونُ مرينا؟ ابتسمتُ لكونها قد تكون لحقت بي لمشاركتي مُتعتي، أتراها كاثرين؟ عادت الابتسامة للحيرة، أصحاب أقنعة الماعز؟ نزعت اليدان من عينيَّ واستدرتُ بسُرعة كسرعة نبضاتي، لكنّها لم تكن إلّا كاثرين.

تمالكتُ نفسي للحظة وتبادلنا التّحيّة ووصفت مدى سعادتها بتلبيتي الدّعوة، وولجنا داخل أحد الأروقة الطّويلة، لم تكن غرابة الدّيكور والصّور مريبة أكثر من حديثها الّذي كانت تُكرّره أثناء المسير، بأنّ المكان عاديّ وليسَ عليّ القلقُ من شيء، وأنّ الجميع هنا مختلفون فقط، وليسوا مخيفين. لكنّ حديثها هذا هو المخيف.

وصلنا إلى آخر الرّواق، كُلّ شيّء كان مُزيّنًا بالأسود، أو لا أظنّ بأنّ هذا النّوع من الدّيكور يعتبر زينة لما يحملهُ من شكل غريب. كانت النّساء شبه عاريات، انطلاقًا من كاثرين الّتي تبدي من جسمها أكثر ممّا تخفيه، والرّجال لن تُميّز الشّاذ بينهم من المعتدل لغرابتهم.

بدأ البهو بالامتلاء وجاءت الحشود من الخارج، ومن باقي الأروقة ومن الأعلى عبر عدّة سلالم، وتبيّن أن النساء ليسوا شبه عاريات، بل قد حضرن عاريات تمامًا،

المشهد غريب حقًّا، أو أنا الغريب بين الجميع المتشابهين هنا. هل حقًّا هذا المكان كما وصفتهُ لي مارينا؟ بدأت الموسيقى تزفّ صخبها وبدأت الخمور تُسكب فوق رؤوس الجميع والجميع يقفزُ مُتفاعل مع موسيقى الميتال هذه. شعور الرّجال الطويلة تُهزّ وأثداء النّساء العارية وقنان الشامبانيا وشبابيك مكبرات الصّوت وشعور الارتياب فيّ أيضًا! كنت الوحيد الذي يجلسُ هادئًا بعيدًا في أحد الأرائك الخالية، ظنّت كاثرين بأنّني خجول فقط، لكنّني كنت أحسّ بشعور غريب وأصطنعُ ارتياحًا وابتسامةً مزيّفين.

جاءت إليّ هي وأحد الرّاقصات وجلستا على طرفيّ وبدأتا في مُحاولة إثارتي، اقتربت كاثرين من شفتيَّ وبدأت تتمايل بوجهها أمامي تودّ منّي تقبيلها ولكنّني حافظتُ على هدوئي، اقتربت من عنقي ولعقتهُ بشكل مُقزّز، لم أتفاعل مع لمساتها أو لمسات هذه العارية المقرفة بالأوشام الغريبة عليها، إلى أن انصرفتا عنّي، بقيتُ وحيدًا لبُرهة ورأيتُ كاثرين تتحدّث مع أحد الرّجال بالجوار، من تصرّفاتهِ الأنثويّة وحركة يدهِ عند خصرهِ يبدو بأنّهُ مثليّ الجنس، عرفتُ بعدما رأيتُها تنظر إليّ بابتسامة مُتأثّرة، أنّها ظنّت بأنّني شاذّ أيضًا بعدما حاولتُ ألّا أتأثّر بها أو بصديقتها العارية قبل قليل، وأن محاولتهما في إغرائي باءت بالفشل، لكنّني قبل وصوله

ناديتها، فسارعت إليّ قبلهُ وأخبرتُها بأنّ ميولاتي الجنسيّة مُعتدلة، وأنّني فقط لا أودّ فعل ذلك.

اقتربت إليّ بصدرها وبدأت تتمايل حتّى لامس شفتيّ، وقالت: "هل أنت مُتأكّد؟" نزلتُ بحاجبيّ إلى الأسفل قليلًا مغمضًا عينيَّ وقلتُ بذلك دون أن أتكلّم: "نعم"، ابتعدتْ عنّي قليلًا وذهبت وسط الحشود لبُرهة.

كان الجميع يمارس الجنس علانية، يمارسون كلّ أنواع الانحراف من شذوذ واختلاط وغيرها بشكل مقزّز حقًّا. كنت مُنصدمًا لما تراهُ عينايَ الآن وكأنّ الشّيطان قد حضر لتوّه لكي يتمّ تمجيدهُ بهذا الشّكل. عادت كاثرين إليّ ومدّت كفّها نحوي لأن أذهب معها، وقالت بحركات ونبرة أنثويّة:

هيا بنا إلى غرفتك الآن.

بقيتُ منصدمًا من هذا الجوّ الغريب جدًّا ولم أردّ عليها، وتابعتُ سيرها واقتيادها لي وأنا ممسك بكفّها. صعدنا إلى الأعلى، فتحت باب أحد الغرف بين عدّة أبواب مُتصافّة، وكأنّها غرف فندق تحوّلت إلى بيت الشّيطان هذا أو لسجن مجهول الخلفيّات، وولجناها. كانت غرفةً واسعةً مليئةً بالكتب، يتوسّطها مكتب عليه مصباح صغير. سحبتْ كُرسيّه وإشارت إليّ بالجلوس بلطافة وبدأت الحديث:

-ألم يُعجبك الحفل؟

-لا، فقط ليس مألوفًا لديّ.. لكنّهم يبدون مستمتعين.

-هل أنت ضدّ الشّواذ؟

-لا، لستُ ضدّ، أو مع.. ببساطة لا شأن لي بمؤخّرات الآخرين.

ضحكت من إجابتي واستدارت نحو الباب، تأمّلت المكان ثُمّ نظرت إليّ قليلا وقالت:

استمتع بمكان إقامتك الجديدة.

لم أفهم قصدها، ولكنّ إغلاقها للباب من الخارج جعلني أحتارُ قليلا في قولها أن أستمتع بمكان إقامتي الجديد! نهضتُ من مكاني بعد دقائق من ذهابها لأتفقّد الباب، اختلطت عليّ الأفكار أكثر عندما اكتشفتُ بأنّ الباب مُغلق حقًّا.

حتّى النّافذة لم تكن مُطلّة على الشّارع، بل على ذلك البهو وحفله الغريب.. تفقّدتُ عناوين الكُتب، كانت جميعها مُجلّدات فلسفيّة.

تبدو قديمة جدًّا. وهذا الغبار عليها دليل على أنّهم لم يطالعوا واحدًا منها لمدّة طويلة. ماذا يودّون منّي بالضّبط بهذه الإيحاءات الغامضة؟ هل مهمّتي هنا أن أكتب فقط؟ لماذا يغلقون الباب إذًا؟ بدأتُ أسترجعُ ما قالتهُ مارينا جيّدًا.

هل أتيتُ برجليّ إلى مأزق يصعبُ الخروج منه! سأنتظرُ حتّى نهاية الحفل فرُبّما قد أغلقتهُ بحُسن نيّة لئلّا يُزعجني أحد من هؤلاء الحمقى في الأسفل، أو في الغرف المجاورة.

هل سأكتبُ الرّواية التي طالما حلمتُ بها في هذه الغُرفة بالذّات؟ سأسعدُ بذلك جدًّا، هل روحك يا أيّها الرّوائيّ الضّائعُ منّي موجودة هنا؟ هل رحلتي في البحث عنك ستكون بنهاية سعيدة لكلينا بأن نلتقيَ أخيرًا.. أم ستكون مشؤومة ونهايتي فيها كما وصفت مارينا.

جلستُ إلى الطّاولة مرّة أخرى، أعدتُ النّظر لألبوم الصّور، استحضرت من خلاله تلك السّهرة الّتي جمعتني بها، بمارينا. صورة النّمل العشوائيّ، الصّرصار، شبكة العنكبوت، وحديثها.. هل سيُكرّر ذلك؟ حملتُ القلم ومُدوّنة المذكّرات. وكتبت عن كلّ التفاصيل الّتي حدثت مُؤخّرًا.

" ... إنّ كُلّ ما نراهُ حولنا من حقيقة، ما هو إلّا كذبٌ بحت.. فالحقيقة المخفاة هي سُلطتهم ومصدر نفوذهم الّذي يفوق ما قد تتخيّلهُ عقولنا البسيطة التّافهة. في خريف سنة 1987 تمّ اغتيالُ العالم الفرانكفونيّ المعروف - دالي بيريس - لتطرّقهِ لأوّل مرّة لمثل هذه الدّهاليز، فقد تفتكُ بصاحبها في أوّل مُحاولةِ غمارٍ لهُ في ربوعها الشيّقة، والرّهيبة!

كانوا طوالَ القرنين الماضيين يُشكّلون تكتُّلهم الخفيَّ هذا، ويُشيّدوا حصونهم لئلَّا يتمّ كشفهم في جماعات سريّة لا تملكُ مقرًّا أو هيئة. لا تملكُ كيانًا ملموسًا أو مرئيًّا، لأنّهم ببساطة! أبناء الشّيطان.

عبدتهُ المخلصين، قرابينهُ المضحّى بها وأتباعهُ ممّن سوّلت لهم نفوسهم بهذه التّبعية العمياء.. أستطيعُ تمييز حركة رعشة عقربِ السّاعة عندما يتوقّف بعد أن يُغيّر ثوانيه، أستطيعُ عدّ الخيوط الصّغيرة في مُحيط المصباح من توهّجهِ الأصفر الخافت وكذلك تمييز الحشرة الّتي تمرّ من الّتي مرّت آخر مرّة.. بل وصرتُ أستطيعُ تحريكَ يديَّ ومجارات حركة نار المدفأة العشوائيّة والرّقص معها بأطراف أناملي الممتدّة وكأنّني أنا من يُحرّكها من بعيد! لأنّ الأيّام مُتكرّرة وساكنة على نفسِ الكُرسيّ وفي نفس الغُرفة.

أمام هذه الطّاولة اللّعينة والأوراق المنثورة فوقها وحاوية الأقلام الّتي لم أحمل منها قلمًا إلى اليوم.. أسبوع لعينٌ في وكرٍ للكُتّاب الضّالين أمثالي ممّن يُقتادون إلى هُنا مُكرهينَ حتّى يكونوا كَتبةَ هؤلاء المختلّين فاقدي سبيل الرّبّ الحقيقيّ يودّون نشرَ مخطوطاتهم المَوَّهة برسائل داعية لطائفتهم الغامضة، وادّين بأن تُدوّن قضيّتهم في عمق الرّوايات والكُتب، بدون أن تكونَ موضوعًا رئيسيًّا لها كي لا تكون مُنفّرة لدى القُرّاء..

هكذا تمّ اختياري، كاتبٌ مُشرّد يجوبُ الطّرقات بحثًا عن لقمة عيش يسدّ بها رمقه ويقيم بها جسده، وأخرى ينعش بها روحه ويملأ بها فراغ قلبه. تساوتْ عندي اهتماماتُ البحث عن الطّعام واهتماماتُ البحث عن نفسي وعن المعنى وإيجادِ ذاتي في هذا الوجود المريب الّذي كرّستُني لفهمه، فإن لم أفعل مُبارك لي رحلةُ التّأمّل الشّيّقة الّتي عايشتُها في حياتي البائسة العبثيّة. بين اهتمامٍ وآخر، لم أنسى لُبّ الاهتمام في تحدّيّ لنفسي بأن أكمل البحث عن ذات الرّواية فيّ حتّى وإن كانت ميّتة علّني أجدُ ضريحهَا لأتبرّك بهِ كأديب صوفيّ رُبّما ألتقطُ روحانيّة إلهامٍ منها تُساعدني لأن أخطّ سطور الرّواية الّتي وعدتُني بكتابتها.

لازلتُ أقتفي أثر الرّوائيّ الضّائع منّي وأبحثُ عن الكاتب داخلي والّذي هجرني وقادتني خطواتي من أجله لهذه القارّة، لهذا البلد الكبير، لم يكُن مقرّرًا لكنّها قادتني إلى هذه الغُرفة أيضًا ولستُ مُخيّرًا في ذلك. هل ستكونُ خاتمة الأمر بأن تكون قد قادتني لحتفي أيضًا؟ تتمُّ معاملتي كأميرٍ هنا لولا هذه القلعة – الغرفة – المتّسخة والفوضاويّة المخيفة.. كأنّها أحد قلاع الرّعب القوطيّ ومصاصيّ الدّماء، مهجورة منذ قرون.. الجميل فيها هو أنّ جميع جدرانها وزواياها مُغطّات برفوف حديديّة عالية تكادُ تصلُ إلى السّقف، إلّا أنّ الصّدأ قد أكل منها وشرب، والأجمل فيها هو عدد الكتب الهائل

هناك، كُتب ترسّب الغُبار عليها بين خيوط العنكبوت والحشرات العالقة فيها.

غُرفة مُؤثّثة بمكتب وكرسيّ فوق حصيرة من القشّ مفروشة في الوسط وعليها بقع دماء قديمة، كأنّها رسالة منهم إلّم أقم بما عليّ فعله. كأنّ النّظر صارَ بالأبيض والأسود وقليل من اصفرار المصباح، وكأنّ عينيَّ قد صارتَا تنظُران بخاصيّة مُرعبة رغم أنّ المكان بسيط جدًّا.. لكنّهُ مهيبٌ بما يحدثُ خارجًا، وبمن هم خارجًا.

أشكالهم المُقزّزة وملامحهم المرصّعة بملاقيط كبيرة في شفاههم وأنوفهم وآذانهم وأطراف حواجبهم المنمّصة بشقوق أو أشكال غريبة رُسمت بها. قصّات شعورهم المجعّدة، بعضهنّ تضعُ ضفائر كثيرة تنسدلُ خلفها وأخرياتٌ تنتحلنَ قصّات رجاليّة قصيرة، بينما بعضُ الرّجال لهم شعور تصل إلى منتصف ظهورهم.. ألبستهم الجلديّة السّوداء وأحذية الكعب تحت سراويل الجينز الضّيّقة.

كأنّهم رُعاة بقرٍ مُختلّين. موسيقاهم الصّاخبة، حلقات الرّقص في كُلّ مكان، مجالسُ الحشيش وغُبار الكوكايين المتطاير وقنانُ الخمر وحالاتُ الثّمالة والعراء، العراء في كُل ما ذُكر سابقًا، لو تجوّلت خارجَ هذه الغُرفة لتساوى من يلبسُ ومن لا يفعلُ من كلا الجنسين.

الكلُّ مُخمرّ والجميع يتمايلُ.. لن تُحسَ نفسك في هذه الكُرة الأرضيّة البسيطة جدًّا. الجنس؟ بل يحدثُ ما هو أكبر من مُجرّد مُمارسةٍ لهُ، تطفّلتُ عليهم مرّة عبر النّافذة، بعد أن زادَ صخبُ الموسيقى وهرجهم المتناغمِ معها، صُدمتُ من تلك المجاميع العارية في اختلاطِ رقصٍ وجنسٍ جماعيّ قذر، لن تُفرّق بين الشّاذّ والسّحاقيّة وبين المعتدلة ميولاتهم، لأنّ أجسادهم العارية المتداخلة لن تُفسّر لك شيئًا.

وطالما يُكرّر الأمر في سهرات مُشابهة في ذلك البهو في الأسفل، المكان الوحيد الّذي أستطيعُ النّظر إليهِ من النّافذة المطلّة على الخارج. بين الفينة والأخرى يتحدّثُ إليّ صرير أحد الأبواب القريبة، يخبرني بقدومِ أحدٍ ما، في كُلّ يومٍ يأتون إليّ في سوعيات مُتفرّقة للاستفسار عمّا وصلتُ إليه! لكنّي أكتفي بقول: "أنا أنتظرُ الإلهام، أنا أفكّر.."، بين صرير الباب الخارجيّ وباب هذه الغُرفة كان الدّعاء الوحيد الّذي أتلوه ألّا يدخل وجه بشع مُشوّه، وألّا يدخل من يتعاملُ معي بغرابة في التّصرف أو الحديث. لأنّ ذلك يُشتّتني جدًّا، ليس لأن أكتب، بل لأنّني لا أودّ الشّعور بذلك الضّياع والصّدمة أكثر ممّا أنا عليه.. على الأقلّ لأفكّر في طريقة للهروب، أو لإيجادّ حلّ ما.. تقدّمت الخطوات ولحُسن حظّي كانت القادمة هذه المرّة هي كاثرين.

ولكنّها لم تكن بنفسِ الودّ الّذي عرفتُها عليه. فقد بدت شديدة اللّهجة وغامضةً أكثر. وضعتْ كُتيّبًا يحتوي العديد من الصّور، وشروحات لكلّ صورة، صورٌ لمحفل وطقوس غريبة، كُتيّب مُعنونٌ بـــــــ"القدّاس الأسود"، العَرْي، الجنس، الرّقص، الخمور، مكانٌ بإنارة خافتة مريبة، عبادة الشّيطان، ثُمّ وضعت يدها على صورةٍ واحدة، لامرأة عارية مُلطخة الأثداء بالكثير من الدّماء، مُثبّتةِ الأطراف بحبال يشدّها أربعة رجال مُلثّمين بلحاف أسود يُغطّي كامل أجسامهم، والسّيف فوق رقبتها. انزلتُ نظري لما خُطّ أسفل الصّورة، كان مكتوبًا "وفي الأخير، يتمّ التّقرّب إلى الشّيطان، بقربان بشريّ"، رفعتُ رأسي إليها فقالت ببرود وثقة.

– لا أريدهُ أن يكون أنت، قم بما أمرت به بسرعة ليتمّ تحريرك.

وخرجت بدون أن تنتظر منّي أيّ ردّ أو عذر، اللّعينة، يا ليتني خضعتُ لما أخبرتني بهِ مارينا ولم آتي إلى هذا المكان القذرِ إطلاقًا. اللّعنة ماذا عسايَ أفعل؟ لن تسمح لي نفسي بأن أدعو لطائفتهم هذه، فالرّوائيّ الّذي أتيتُ بحثًا عنه هنا وقبلتُ الهجرة والجوعَ والتّشرد، لن أسلّمهُ لكم بهذه السّهولة، لم يعد مُهمّا أن أكتب نصًّا إبداعيًّا جميلًا مادمتُ مُقيّدًا.

حدث تناقضٌ رهيب في نفسي، هل أكتب لهم، أم أموت. لا أظنّ بأنّي مستعدّ للموت الآن، رُبّما أكتبُ وأرى بشأن فعلتي عندما يتمّ إطلاق سراحي، أو رُبّما ليذهب القُرّاء السّذّج التُّبّع إلى الجحيم. سأكتب ولستُ مسؤولًا عن غباء بعض العقول. فهُم سابقًا كانوا قد أرغموني بأن أدعم قضيّتهم وطائفتهم هذه ببعضِ الأحداث والعبارات الدّاعية للانضمام والتّعريف بهم أكثر. طالبين منّي توظيفها مُكرها وستكون هي شريطة الخلاص الّذي سأنالهُ بعدها، أم المكافأة فهي نشرُ الكتاب، والتّسويق لهُ على حسابهم، لينال رواجًا أستفيدُ منهُ كما سيفعلون.

هل سأكونُ قربانَ الشّيطان القادم في دهاليز هذه الجماعة! أم أكتب لهم مخطوطهم اللّعين هذا، أم في الحالتين سأموت؟ فمن غير المعقول أن أعرف وكرهم، ومُخطّطهم، وجميع أسرارهم الخفيّة، وأبقى حيًّا ببساطة. هؤلاء الخاضعين لإبليس اللّعين، لن تهمّهم حياتك إن وقعت في قبضتهم، بل سيستطيبون التّقرّب بك إليه بذبحك وتلطيخ أجسامهم بدمك. ليلة القدّاس الأسود قريبة جدًّا. وأنا لا أملك سوى عدّة مخطوطات مُبعثرة.

هل أضحّي بواحدة منها! وأزوّدها بما يريدون منّي لألعب على فرصتي الوحيدة في الخلاص، وهي اتّباعُ ما أمروني به؟ سأفعل، نعم سأفعل. دخلتْ عليّ كاثرين وبدت

عليها أثارُ كدمات ما، تقدّمت بضع خطوات وسارت أعقابُ خطوات أخرى بعيدًا بعد أن أغلقت الباب بالمفاتيح لم تكن كاثرين بنفس الملامح الواثقة الباردة الّتي تحمل الكثير من الغموض كآخر مرة. جلست على الكرسيّ الّذي أمامي وأبعدت القلم والأوارق عنّي، أمسكت بيديَّ وقالت بحيرة وتوتّر:

-آسفة، أنا آسفة حقًّا، أرجوك أن تسامحني يا آدم.

-ماذا؟ لماذا تتأسّفين ما الّذي حدث؟

-لقد أوهموني حقًّا بأنّهم سيُطلقون سراحك عندما تكتبُ هذا المخطوط اللّعين، ولكنّني اكتشفتُ بأنّهم سيحتجزونك لمدّة أطول.

-تقصدين سيقتلونني؟

وضعت رأسها على الطّاولة وبدأت في البُكاء، تحسّستُ شعرها لتهدئتها قليلًا، لكن بلا جدوى، نظرت إليّ بعينيها المغرورقتين بالدّموع وشرعت في الحديث.

-لم أكن أعلم بأن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه الآن، لم أكن أعرف بأنّها ستسيرُ على هذا النّحو. في تلك اللّيلة، عندما انضممتُ إليهم، ظننتُ بأنّها مُجرد حفلات صاخبة وطقوسِ خمر وجنس وغيرها، بدا الأمر مثيرًا وغامضًا نوعا ما، فأردت الخوض فيه فقط، ولم أكن مُتديّنة أصلًا لأن أنفر من تقرّبهم من الشيطان هذا، خلتُ أنّهُ مُجرّد

عبث شبابيّ. لم أكن أعرفُ أنّهم سيُرغمونني على اقتياد شخص ما للموت، والآن! إن لم تكتب هذا المخطوط، سيقتلوننا حقًّا، أمّا إن فعلت فستطولُ مُدّة مُكوثك هنا لا أكثر. أرجوك وافق. واكتب لهم روايتهم اللّعينة، أرجوك!

ككاتب لديّ خبرة في كشف نفوس شخصيّات الرّواية جيّدًا، وبهذا الحسّ أتمكّنُ من كشف نفوس النّاس في الواقع أيضًا.. وشيء ما فيّ يُخبرني بأنّها صادقة في كُلّ ما تقول. أمسكتُ يديها وطمئنتها.

-لا عليك، سنكتبُ لهم هذا المخطوط اللّعين لنُوفّر لنا بعض الوقت.

أنزلت رأسها مرّة أخرى مُغتاضة لما أقحمت نفسها وما أقحمتني فيه. أصبحت كأيّ فتاة عاديّة بريئة رغم مظهرها الّذي غيّروهُ لها. نزعت ما عليها من تلك الألبسة السّوداء الّتي تُشبه لباسًا داخليًّا لكنّهُ مصنوع من الجلد ومُطرّز بشكل يمكن الخروج به في مثل هذه الأوساط المتقبّلة لذلك، وبقيت بلباسها الدّاخليّ الحقيقيّ جالسةً في الزّاوية. المسكينة، ذهبتُ لأشركها الزّاوية والحزن، أسندت رأسها إلى كتفي وقالت بنبرة مُتردّدة:

-هل تتذكّر ذلك اليوم في المقبرة؟

-أيّ يوم!

-عندما بقيت عند ضريح أحد الكُتّاب هناك..

-نعم، أتذكّر، لماذا؟

-كُنّا نعلمُ بشأن ذلك الملتقى للكُتّاب الشّباب أمام كاتبهم المفضّل. كُنّا نودّ استدراج واحد منهم لهذه التّجربة القذرة. لكنّك كنت مُلفتًا هناك، حركاتك، ملامحك، تصرّفاتك أمام القبر، كلّ هذا جعلنا نختارك أنت لدخول هذا العالم الشّائك.

-هل، هل تعرفين قصة القناع الّذي وجدته هناك؟

-كان قناعي أنا، أنا من كنتُ هناك. وأنا من كنتُ أسفل عمود الإنارة في ذلك الشّارع الفارغ الكبير، وأنا من كنتُ في المقعد الأماميّ بجانب السّائق عندما أجبرك واحد منّا على الصّعود.

-أنت أعطيتني ذلك الظّرف إذًا؟

-نعم، كنت أنا..

-غريب، ما الّذي كان يحتويه! لقد أضعته.

-كان يحتوي على نفسِ الطّلب الّذي أنت تقومُ به مُكرهًا الآن، لكنهُ كان طلبًا بشكل أقذر من هذا.

-أقذر من هذا! كيف؟

-لقد كانت فيه صور ليومياتك كلّها، صور لزفاف قريبك، جدّتك، صور لك أنت. أرادوك أن تعرف أنّ لهم جذورها في كلّ مكان، ودوّنوا رقم هاتف لتتّصل بنا، فتأتيَ

إلى هذه الغرفة بشكل ما. علمنا بشأن تضييعك له، فاخترنا خُطّة بديلة، أن استدرجك أنا. وللأسف قد نجحت.

من حُسن مذكراتي فقط أنّها دوّنت كلّ ما سبق، وستدوّن لحظة الاكتشافات هذه. لو أنّها رواية لنالت نجاحًا كبيرًا. لم أجعلها تتحمّل تأنيبًا أكثر، ولم أعاتبها حتّى! وقررتُ كتابة المخطوط بصفة رسميّة، وباتّباع ما يقولونه حرفيًّا. وسعدت هي لهذا الخبر الّذي سيعيد لنا قليلًا من الأمل للحياة كعصفورين في القفص، أم بفرصة هروب في مُتّسع الوقت ذاك.

آسفٌ لكلّ من سيتأثّر بما سيُكتب، ولكلّ ضعيف في تديّنه، أو في نفسه، آسف لكُلّ من سيغدو عابدًا لإبليس اللّعين، ومن سيُصبح مُخلصًا له.

كلّ الأسف منّي لمن سيدخل في دهاليز نفسيّة وعقائديّة أو تجرّه الرّواية بغير قصد لأن يُصبح من دون أن يشعر واحدًا منهم؛ أهل الشّيطان وخاصّته! نزلت بجسمها الشّبه عاري واستندت على فخذي، أغمضت عينيها وسرحت بعيدًا.

وبدأتُ أربتُ على كتفها وأتحسس فيه بلطف وأداعب شعرها المسرّح بضفائر إفريقيّة جميلة. وأفكّر في قالب روائيّ يُناسب ما طلبوه منّي. أغمضتُ عينايَ وسرحتُ

بعيدًا. لكنّ أوّل ما حضر في مخيّلتي، هو جدّتي، عائلتي البسيطة في مدينتي القرويّة تلك.

ومدينتي ككلّ. عملي كنادل بسيط في معطم بسيط. كان كُلّ شيء بسيط لكنّه مليئٌ بالسّلام. كُلّ ما أحتاجهُ الآن، قليل من السّلام فقط. لن يهمّني عمق وجمال الرّواية، سأفضّل أن تكون منفّرة، لن يقرأها أحد لسوء الطّرح والموضوع، سأجعلها أسوأ رواية في التّاريخ، أمضيتُ كلّ هذا الوقت لمحاولة كتابة رواية عظيمة، لأسعى الآن إلى كتابة رواية أودّها الأسوأ في التّاريخ؟ كُلّ ما حدث كان عبرة لي، لكاتب أحمق مهووس ومجنون. لن أنسى هذا الدّرس أبدًا، التّكلّف من أجل كتابة رواية، ومحاربة النّفس والاصطناع لمجرّد تركيبها، سيجعلُ منها الأسوأ على مرّ التّاريخ، فالرّوايات يجب انتظارها لنكتبها، لا أن نذهب إليها نحن.

فالرّوايات الحقيقة، تكون هي المصرّة على أن تكتبها، لا أن تكون أنت المصرّ على ذلك فتقتلها. بعد قرار كتابة الرّواية، سيكون الإهداء حُبًّا لمارينا بشكل عبثيّ غامض. سيكون الإهداء:

"صرصور فنّان وحيد، في شبكة العنكبوت سيأكلهُ نمل مُتمرّد. هل سيطردهم العنكبوت أم يأكله النّمل؟ "

الفصل الأخير

هل تُصدّق يا عزيزي! أن تلك اللّوحات، الأخيرة أقصد. تُشبهك تمامًا. ليس لأنّني رسمتُكَ فيها، أو رسمتُ إيحاءً ما عنك من خلالها.. لكنّها كذلك لأنّك لم تُفارق مُخيّلتي في كُلّ لطخة حبر، في كُلّ لطمة ريشة، في كُلّ لون فكّرتُ في إضافتهِ وفي كلّ تعديل وزاوية نظرٍ من جهة أخرى.

أنت اللّوحات والفنّ. يُزعجني أنّ الحياة في مدينتك البسيطة قد خلّفت فيك كُلّ هذا الضّياع والبؤس، لكنّني أشكرهُا لأنّها قد خلّفتك. لنتشاركَ لطخات الحبر في ثيابنا من لوحاتي، لنتشارك المطر، لنتشارك العواء مع كلاب اللّيل المشرّدة في الأسفل، لنتشارك التّحليق، لنتشارك مع الطّبيعة والحبّ.

أنت مثل السّديم تمامًا، بهذا البُعد الرّهيب، لكنّك الأقرب. هيا نُغنّي ونرقُص! أخبرتني مرّة أنّ الموسيقى حرامٌ في قريتك؛ لا أعلمُ تعالمَ دينكَ، لا أعلمُ أحكامَ تحريمهِ أو إن كانت حقيقيّة، لا أعلم من دينك سوى أنت؛ ولكن تأكّد بأنّ الله لن يُعاقبك لأنّك تسمعُ موسيقى الحُبّ، موسيقى السّلام، موسيقى الحياة. فاللهُ ليس ضدّ الحُبّ والسّلام والحياة.

إلى أينَ أنت ذاهب! آدم؟ لا، لا تفتح الباب، سأفعلُ أنا. رُبّما هم أولائك الحمقى مُجدّدًا، الشّيء الرّائع في قريتك هو قهوتكم، سأحبّك مرّة أخرى في كُلّ رشفة. أعدّ لنا القليل منها ريثما أدخل ضيوفنا.

– آنسة مارينا!

– أهلا سيّدي.. خلتكم ستأتونَ باكّرًا، تفضّلًا.

– أنت تعرفين حركة السّير هذه الأيّام، وكأنّ الجميع سيموتون غدًا ليُثيروا كُلّ تلك الجلبة.

– لا عليك، كنت في انتظارك.

– مع من كُنتِ تتحدّثين! سمعت دمدمات من خلف الباب، ألستِ وحدك؟

– أه، بالطّبع، لستُ وحدي.. فآدم جاء إليّ مؤخرًا كما أخبرتك ليقيم عندي.

– جميل، أين هو الآن؟

– يُعدّ لنا القهوة، سيحضر بعد برهة..

أزاحت مارينا نظرها عن عينيْ السّيّد لؤي، طبيبها النّفسيّ الّذي صارَ يتابعها ويزورها في حصصٍ مُنظّمة بعد حادثة "القدّاس الأسود"، فطبعًا لن يمُرّ شخصٌ على هول تلك المناظر الغريبة والبشعة، ويبقى سليمًا في نفسيّتهِ الّتي ستُعايشُ حتّى جُثّة مُمزّقة؛ كانت تتبعُ بنظراتها من باب المطبخ،

حتّى أريكة الجلوس بالقرب من السّيّد لؤي.. ثُمّ نطقت مازحة:

– صحيح أنّ لديكم قهوة لذيذة، لكنّكَ تُفسدها بتأخّرك في الطّهو يا عزيزي.

تحدّث لؤي هذه المرّة:

– مارينا، هل يُمكنكِ أن تُحدّثينَا مرّة أخرى عن تلك اللّيلة..

قطب وجهه ثُمّ تابع:

– أعرفُ أنّ الأمر مؤلم، لكن يجبُ أن يتمّ العلاج! حاولي سردها من زاوية أخرى. هل يمكنك ذلك؟

بدأت تشُكّ بأنّه مُحقّق مُتخفّ بشخصيّة طبيب نفسي، فأسئلتهُ غريبة دائمًا، لكنّها لم تكن تتوانى في الإجابة عليها. تنهّدت بعمق حزين ثُمّ استرسلت في الحديث:

– كنتُ قد لاحظتُ اختفاء آدم، كما أخبرتك سابقًا، كما تعلم – وآخر مقصدٍ لهُ كان كاثرين – وحفلتها المريبة وفُرصة العمل الّتي منحوها إيّاهُ، كان كُلّ شيء عاديًّا للغاية، خلتُ أنّهُ في الحفل، رُبّما يعملُ هناك نادلًا على غرار الكتابة، أو شيئًا من هذا القبيل، كنتُ مؤمنة أنّهُ سيعود، وسعيدة أنّهُ فعل، طال غيابه، ذهبتُ إلى العنوان الّذي أخبرني بأنّه ذاهب إليه، لم يكن مسموحًا لأيّ غريب بالدّخول، بل ومُشدّد الحراسة ليس كما يظهرُ كأنّه مُجرّد منزل بسيط. فكنتُ أعودُ

أدراجي بدونه، وبدون إجابة عن أيّ سؤال. إلى أن جاء ذلك اليوم! في معرض الكتاب الدّولي، أين ستكونُ دور النّشر وجميع مُؤلّفاتها حاضرةً هناك، وكذلك الكُتّابُ الّذين سيحضرون لتوقيع مُؤلّفاتهم. كان قد وعدني بأنّهُ سيُشارك فيه – لا أدري إن كان كلامًا عن ثقة عمياء، ورُبّما زائفة، أو ممّا وعدتهُ به كاثرين – ووعدتهُ أنا الأخرى بأنّني سأكون أوّل من تأخذ نُسخة من روايته المتمرّدة حتّى على كاتبها. وهذا ما فعلت، دوّنتُ اسمهُ في تطبيق المعرض الّذي يُتيح الفُرصة ليُسهّل عليك التعرّف على كاتبك، في أيّ جناح ورواق هو؛ وهذا ما حدث.

توجّهت نحو العلامة الّتي دُوّنتها في خريطة المعرض الإلكترونية، ووجدتُ بين عديد المؤلّفات، رواية على غرار اسم كاتبها غير الكامل، كان عنوانها مثل اسم الكاتب"آدم"، سعدتُ جدًّا لرؤية ذلك، وكأنّني رأيتُ آدم حقًّا، اقتنيتُ نُسخةً وبقيت في الانتظار، في انتظارهِ ليُوقّعها لي ويحقّ وعدي، انتظرتُ هناك لمدّة، ثُمّ سألتُ العارض عنه، فأخبرني أنّ وقت توقيعه قد انتهى، وهو لم يأتي أصلًا، رُبّما سيفعل غدًا.

عدتُ لمنزلي مُحبطةً وفيّ شكّ بدأ يُزرع، لا أدري ممّ كان أو لماذا، لكنّهُ بدأ يُزعجني، قبل أن أغيّر ثيابي، بدأتُ في

تصفّح وُريقات الرّواية بسرعة، ولكنّ بالي بقيَ مشدودًا في الإهداء، لم يكن الإهداء بسيطًا أو عاديًّا، لم يكن خاويًا أصلًا.

بل فيه شيء ما غريب، ليس بشكل أدبيّ مثير، بل يحملُ سرًّا أو لغزًا ما، يحملُ رسالة ما: (صرصور فنّان وحيد، في شبكة العنكبوت سيأكلهُ نمل مُتمرّد. هل سيطردهم العنكبوت أم يأكله النّمل؟) من غير المعقول أن يكون عاديًّا!

فلاش باك...

صورة موكب مبعثر من النّمل! ما قصّتها؟

أحسُّ بأنّهم يحتفلون، فنادرًا ما تجدُ النّملَ عشوائيًّا..

ماذا عن هذه؟ ما قصّة الصّرصار؟

أشعرُ بأنّهُ فنّان منبوذ، التقطتُ له هذه الصّورة وهو يغني والنّمل لا يتكرث به، لهذا أردت تكريمه.

ههه، يالك من غريبة. وهذه؟

شبكة العنكبوت؟ كنت في نفسيّة منغلقة، رأيتها كأنها احتجاز. بالإضافة إلى أنّني أشبهُ العناكب، أنا عنكبوت بشريّ ربّما ههه...

تذكّرتُ أسئلتهُ حول الصّور، ومضمون الصّور من زاوية التقاطي لها. وبدأت الإسقاطات تأتي لوحدها، هل هو الصّرصار الفنّان الوحيد! وحيد في شبكة العنكبوت! أخبرته أنّ رؤيتي للشّبكة كأنها احجتاز، هل هو محتجز؟ هل جماعتها

المتمرّدة تلك، هي النّمل، يأكلونه! هل إحياء الأكل فيه أمر خطير عليه؟ أنا هي العنكبوت، هل سأنقذه أم سيأكله النّمل. قلتُ بصوت مُرتعش خائف، لا، لن يفعل.

وهممتُ مُسرعة إلى العنوان مرّة أخرى، وحاولت الدّخول بالقوّة، حتّى لطمني أحد أولئك الضّخام بلكمة سقطتُ أرضًا بعدها، فاتّصلتُ بالشّرطة، ولحُسن حظّي جاءت دوريّةٌ تمّ الاتّصال بها كانت بالجوار فقط..

صمتت عن حديثها، فهي في كُلّ مرة تجد صعوبة في وصف هذا المشهد. ثُمّ لفظت بؤس تخيّلها لما جرى.

– دلفنا، الشّرطة وأنا بعدما تمّ تطويق المكان بعد ساعة من استفسارهم وبحثهم حول المكان المبلّغ عنه، فتبيّن أنّهُ غير عاديّ حقًّا، جاءت دوريّات أخرى وأصبح الأمرُ جديًّا أكثر. تمّ اقتحام المكان، وتصفيد الجميع فور تأكّدهم ممّا يحدث في كواليس ذلك المنزل بالفعل.

تمّ فكُّ أسرِ الكثير من الرّهائن؛ ونقلُ الكثير من الجُثث، منها المدفونة، أو المقتولة حديثًا والمرميّة في قبوٍ عفنٍ يتمُّ زجُّها فيه، كانت هُناك كاثرين، ولكن للأسف! كانت تجثو فوق حصيرة ويداها إلى الأعلى مُقيّدتين بحبل صوب السّقف، وظهرها مُلطّخ بدماء ترسمُ أصابعًا، كأنّهم كانوا يتبرّكون بلمسها، كانت تفوحُ منها رائحة مُقرفة، الخمر المسكوب على جسمها والّذي ارتوت خصلاتُ شعرها منهُ

أيضًا؛ بقايا فحم أسود، والكثير من الجروح، تقدّمنا أمامها، قبل أنْ نُلاحظ نهديها اللّذين غرقَا في اللّون الأحمر، وبطنها الّذي ترسّب عليه أثرُ القيد، كان رأسُها مُتدلّيًا على كتفها كالمغمى عليها، لكنّها لم تكن كذلك، كان عُنقها لافظًا لما في جوفه عبر فُتحةٍ كبيرة، تركتُ المكان فور رؤية ذلك، لم أعرف ماذا حدث بعدها، وجدتُ نفسي في المستشفى! كان قد أغميَ عليّ، ووجدتُ حينها آدم واقفًا بالقُرب منّي، تجاوزتُ تلك المرحلة بصعوبة، ولكنّني الآن بخير، مع آدم الّذي يعيش معي. هذا كُلّ ما تذكّرته!

كانت نظرات السّيّد لؤي، بين الشّفقة، الحيرة والتّساؤل، فبادر بسؤال آخر:

– أين هو آدم! هل هو هُنا؟

أماطت نظرها إلى الجانب الآخر من الأريكة وقالت عاقدة حاجبيها:

– نعم، غريب، ألا ترى؟

جال لؤي بعينيه نحو طرف الأريكة، ثُمّ استأذن للذّهاب، دائمًا جلساته غريبة مثل هذه، لا يطيلُ المكوث، لا يُطيل للبدأ في طرح سؤاله، ولا يطيل الجلسة ككلّ، أمرهُ غريب حقًّا بالنّسبة إليها، تمشّت معهُ هو وزميله الصّامت دائما صوب الباب، وتوادعَا هُناك ثُم أغلقت الباب، كان السّيّد

لؤي يدمدم بحسرة مع صديقه أثناء نزولهما الدّرج، حول حالتها، وقال بنبرة مُشفقة.

– المسكينة، لازالت لم تخرج من صدمتها، لازالت تظنّ بأنّ آدم حيٌّ، آلمني أنّها كانت تتخيّلهُ جالسًا على الأريكة معنا وبأنّهُ معها في نفس المنزل. آمل أن تتشافى.

النهاية